لغة العود والحجر

عباس مدحت البياتي

مجموعة قصصية موروث شعبي

لغة العود والحجر

قصص قصيرة

من الموروث الشعبي سمعتها عن لسان

والديّ

الكاتب : عباس مدحت البياتي

دار الفن للنشر الإلكترونية لمختلف الكتب
المانيا - كيمنتس
M0001@MYYAHOO.COM
******
DAR AL-FAN FOR ELECTRONIC
PUBLISHING OF VARIOUS BOOKS
GERMANY - CHEMNITZ

إهـــــــداء

أهـدي الكتـاب لـروح والـديَّ الكـرام، اللـذان أغنيـاني فـي موروثـه مـن قصـص شـعبية شـجية، أغـدقاني بهـا خـلال مرحلـة الطفولـة ضـمن جلسـات السـمر المعتـادة بـين أفـراد الأسـرة، حتـى جعلانـي مـن الـذين يـذوب اسـتمتاعا بهـا. فانغمسـت فـي أذهـاني قروؤهـا، كمـن طبـع رسـمها ختمـا فـي الـذكرة، ليكـون بقائهـا دليـل أصـالة ورقي على مر الزمن.

علـى الـرغم مـن أميـتهم، ألا أنهمـا تمكنـا مـن رفـد تربيتنـا بقصـص شـجية معبـرة، تُخِيرهـا الحكمـة والفطنـة، رفعـت مـن شـأن أذواقنـا وأحاسيسـنا لتتطـابق فـي جوهرهـا زخـم معـاني الإنسـانية، فزادتنـا عزما وثباتا في محاور الحياة المختلفة.

تلـك الهالـة مـن الأعجـاب بهـذا المـوروث جعلتنـي أجهـد فـي تسـطيرها بأسـلوب شـيق، محافظـا علـى جـوهر الفكـرة، لأخلـدها مثلمـا أخلـدهما بهـا، لتسـتمتع بهـا أجيـال قادمـة، ولأحفظهـا مـن الضياع.

الرحمة لأرواحهما الطاهرة، ومثواهم الجنة بأذنه تعالى.

المضمون: --------

الماضي؛ هو ذلك الشبح الذي يرافقنا في مسيرة حياتنا، والذي يخطر أذهاننا بقناديل صفاته المشعة، وسط أغشية الظلمة المحيطة بنا.

دائما ما يخطر في بالنا حين نستذكر الماضي؛ نستذكر الأصالة!... تلك هيَّ الصفة التي نطلقها على زمن قد مضى لسره، صفة نشعر بسحر ظلالها حاضرة في كل عصر وزمان، وكأن للماضي سطوة دائمة على مجد الحاضر، خاصة حين نجد في ثراه ضوء دائم للحكمة.

يا ترى! هل يفتقد الأنسان الأصالة جيلا بعد جيل حين يقارن نفسه بالماضي؟

لِمَ نظن بأن الماضي هو أكثر أصالة من الحاضر؟

ما هيَّ مقاييس القيم التي نستند عليها؟--- أليست هي نفسها قيمنا التي ورثناها عن أجدادنا لنرثها لأجيالنا ونتداولها في حياتنا؟

ما الذي يميز الماضي عما نحن فيه ؟

أظن أن العملية تحتاج لوقفة نسترجع فيها قيمنا، ومبادئنا، وطرق التعبير عنها وتلك التي نتخذها رسما لمسارات حياتنا، لنعيد بذلك ترتيب الصفات بحسب الظرف المحيط بنا، وحسب الأهمية.

دعنا نفسخ جسد الماضي، ثم نبحث في ثناياه عن جوهره ومضمونه، عن القيم المتجذرة به، عن صيغ التعبير المشعة، عن فسيولوجية الإحساس ودراماتيكية المشاعر. كي نبدد إشكالات الفوارق التي نتحسس بها بين أصالته وأصالتنا.

تلك الإشكالات الملونة جعلتني أكتب قصص من الموروث الشعبي، والتي سمعتُ دندنتها من قبل الوالد والوالدة (رحمهم الله وأحسن مثواهم) لما تحتويه من عبر وحكم رصينة صقلت اذهاننا وستصقل ذهن القارئ وبالذات الجيل المراهق، جيل التلفاز والكومبيوتر والهاتف الجوال والالعاب الالكترونية وجيل البرامج الاجتماعية العديدة.

من خلال الموروث الشعبي نرى ديمومة الحاضر والفكر المستفحل، أي نبصر طبع الماضي الجميل ليقللنا بمراكبه الآمنة نحو المستقبل المجهول بشيء من الثقة، نبحر بفرات حكمه وأدبه، لنقلم أظافر الغد بالعلم.

تلك هي حقبة أنقضت، عشنا تواليها قبل أن يجيلها عن عالمنا التطور الالكتروني والتكنلوجي من تلفاز وكومبيوتر وهاتف جوال، وأجهزة ألعاب وتسلية من أكس بوكس وبلي ستيشن وأتاري وآيباد وما شابه ذلك ----الخ.

لذا وددت أن أكتب عن بعض التي تذكرت منها، لأنبه الفتية عما يشغل بالهم من أفكار هدامة مثل الزومبيات وأجراس الحروب الخيالية ولعبة البوجي، التي وسعت مداركهم نحو عمق شاسع، كثيرٌ منها مظلم جوانبه، ينسيهم دينهم وتأريخهم وأدبهم وأخلاقهم.

الكاتب : عباس مدحت

البياتي - السويد \ 2016

محتوى المجموعة

1- الصياد والسمكة.....6

2- مملكة النساء 20

3- الملك والذهب.....25

4- أبن آوى 31

5- الديك والقاضي 45

6- سر السعادة 49

7- حسن كاروب.....56

8- فروة السبع 65

9- الأميرة والمؤذن 74

10-الطرائف في استكان الشاي.....92

11-لغة العود والحجر.....107

12-المقصلة.....123

13- الوفاء 133

الصياد والسمكة *

كان ياما كان في سالف العصر والزمان، رجل من أهل بغداد يدعى رداد، مزاجي الطباع، فض، كثير العناد، هزيل الشأن، قليل الخير والزاد....

كان قد جرب حظه بأعمال كثر دون أن يفلح، ينطبق عليه المثل القائل (سبع صنائع والبخت ضائع). لمْ يحظى بميزة ترفع من شأنه ولم يركن إلى قرار يجمل به صورته.

لا يحسن الظن ولا التدبير، لا يسعى خلف الرزق بضمير.

منبوذ من قبل الجميع، ذليل، خائر العزم والقوى، عديم الإيثار، متطفل في عيشه على نعم الميسورين من الأخيار.

لِتراكم الهموم؛ تراه في سيره خطل كالمسطول، يكنى بين الملأ بالرجل الكسول.

خسر في مجال التجارة، عقَّ في النجارة، راغ في قُطّاع البناء، فلم يجني سوى الخيبة والعناء، فوجد ذاته تتبع الرجاء بين الهوان والجداء.

عاند سعيه فعانده الزمن، غال في صبره فقست عليه المحن، طارده الخوف دون أن يطرأ تغيير في أفق حياته، دون أن تستعر نار الغيرة في صدره، ظل يرفأ بكساد العيش، وقرقعة الغد المبهم، و زن الزوجة المسكينة عليه.

كانت قد صبرت عليه، تحملت جلد السنين، كرهت خموله وسلوكه المهين، فلم تصبر عليه إلا لحيائها وحسن سيرتها وأصل نسبها، فهيَّ عزيزة نفس، دَمثة الخُلُقِ والأخلاق، طواها

الـزمن تحـت جنحـه، فباتـت جـزءا مـن قـدره، كـأنَّ القـدر الـذي تلاعـب بهـا واصـطفاها تحـت جنحـه، قـاس قـدر زوجهـا بـذات القياس.

لـم تطـق جلوسـه فـي البيـت، فالبيـت لـيس مكانـا للرجـل، حثتـه علـى مزاولـة العمـل، ليتجـاوز أزمـة فقـره، ليغيـر مـن شـكله ومكانتـه فـي نظرهـا ونظـر المجتمـع، ففـي الحركـة بركـة، وفـي القنـوط عـزاء ومضرة.

مـن هـذا البـاب كانـت زوجتـه لا تبطـل الـزن علـى أذنيـه، فلـم تمـل ولـم تكـل مـن شـحن طاقتـه، لتعينـه علـى المبـادرة، أحيانـا الإنسـان يحتـاج لدافعيـة؛ حتـى لـو كانـت تلـك البـادرة بائسـة دون جـدوى، فبالأمل تخضر الحياة... فقالت له:.....

- تحـرك يـا رداد، أبحـث عـن الـرزق فـي أرجـاء الـبلاد، العمل يجلب لك الحظ، لا تتقاعس كتقاعس الحريم..
- أي عمـل يـا امـرأة؟ لقـد جربـت أعمـالا شـتى دون أن أفلـح، طـردت مـن عمـل البنـاء والنجـارة، عكيـت وخسـرت في التجارة، كأنَّ الحظ لا توج ناره؟
- بـل أنـك كسـول وأعمـى، عليـك أن تفكـر بـزاد يكفينـا، يكفينـا صـدقة الآخـرين، لـن اسـتطع تحمـل المهانـة والبـؤس، أصـبحت أجسـادنا ملـك هـؤلاء الأخيـار، عليـك اسـترداد عافيتنـا وكرامتنـا، عليـك أن تسـتر علينـا مـن الأعين الزائغة، غدا ستحاسب أمام الله ورسوله.
- أهجـس الأبـواب مؤصـدة بـوجهي، لـم أجـد حظـا وسـط ضجيج المنافسة.

- بالأحرى أنت جلد وعنيد، ليس فيك مرونة التعامل، لا تحاول أن تعلق فشلك على حبل الحظ . الأنسان هو من يصنع حظه بجهده وفكره...أمامك شتى الأعمال تستطع أن تجربها وتمارسها، أعمل لنفسك دون أن تدع أحدا من الناس يكن صاحب فضل عليك.
- فكرة جيدة، أعييني بها، قولي لي: ماذا أعمل؟
- أعمل حطابا؛ الجو بارد، الناس بحاجة إلى الحطب ليتدفؤوا، أعمل زبالا؛ جمل المدينة من قذارتها وجملنا من قذارتك التي أهلكتنا بها. أعمل صيادا، دعنا نأكل غذاءً مفيداً، أجسادنا يبست من الفاقة. أعمل أي شيء يروق لك، المهم أن تعمل ليرحمك الله.

راقت له فكرة العمل الحر، وخاصة فكرة الصيد، لا تكلفة مشقة، سيستمتع بالظلال الوارفة، وعزف خرير الماء الجاري، وألفة طيور من نوارس وطائر النوء والبط والوز ...الخ. تلك التي اشرأبت طبعها من زرقة السماء وحنان الشمس وخضرة الأشجار السامقة، فالمنظر يغريه وينسيه همومه، في الوقت الذي يشغل نفسه بالصيد بعيدا عن زحمة الأسواق التي تعج بالصالح والطالح من البشر.

استقر على فكرة الصيد، فهي أضافة لمتعتها فلن تكلفه سوى مفازة الطريق.

في اليوم التالي جمع عدته مضى يطوي مسافة الدرب نحو الشاطئ الهادئ برفقة حظه التعيس، عسى أن يجد ضالته ويتحلى بالمسؤولية.

جلس على صخرة في منعطف من النهر الجاري، حيث تبطء فيه المياه، ثم صار يرمي سنارة صيده في عمق هذا المنعطف من نهر دجلة.
مضى يومه الأول دون أن يهتز خيط سنارته ولو مرة واحدة، دون أن تداعب خيطه سمكة أو قشة متدحرجة في مجرى المياه.
قضى يومه في سرحان مع بساط الريح، متنقلا بين مروج الذاكرة وصور أقرانه من أبناء جلدته، الذين فأقوه مركزا وغنا، فذاك عمر وعلي وحسن وسعد وعادل وكاظم ووو....الخ، كلهم أصبحوا ذوات شأن ومكانة في المجتمع إلا هو؛ بقي يترنح على قارعة الطرق، لا يمسك بيده قشة يكش بها الذباب عن أنفه.
لكنه قضى يوما مختلفا عما سبق، سعى لإذلال المسافة بينه وبين زوجته بصدق النية، أجتهد دون أن يجتهد الحظ معه، دون أن يختصر ذلك المجاز الموحل قيد شعرة، قضاه بعيدا عن وخز الملامة والتوبيخ، بعيدا عن زوبعة الزوجة وقسوة نظراتها التي تخزق جسده الهش بسهام مسمومة.
أقنع ذاته في تكرار المحاولة للوصول إلى الهدف، عسى أن يعثر على حظه بين مخالب القدر وظلف العيش.
لم يكن يومه الثاني أفضل من الأول، كأنه مضى بنفس الروتين، مضى دون أن يجد لرزقه بريق في أفق الحظ، مضت غيرته تتعقب الطيور الدائرة من حوله وهي تتبع حظوظها، التمس خفة طائر النوء والنورس في اصطياد السمك بكل يسر.

تمنى لو خلقه الله طيرا ليحظى برزق سهل مثلما صار يظن، دون أن يدرك بأنها تجهد وتكل في البحث والتمعن عن رزقها في باطن الأعماق، قاطعة مسارات النهر عرضا وطولا.

حين عاد خالي الوفاق قالت له زوجته:....

- أستهدي بالرحمن، صلّي، أتقي الله، تقرب إليه، عسى أن ينير لك دربك ويرحمك. {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ}.
- أتظنين ذلك؟.... تجاوزت الأربعين ولم أحظى برزق، أبعد الأربعين سيرفأ بحالي، ماذا أفعل به؟ والله إلو التقيت بالحظ لقتلته، كفي عن خرافاتك.

تركته زوجته في صمت دون أن ترد عليه، تعرف عناده ومخه الصدأ، فلن تغير في شيء مكتوب على الجبين، "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، فالله يهدي من يشاء".

عاد للنهر بعد ظهر اليوم الثالث، متأملا أن تفك عقدة حظه المربكة، قضى نصف وقته دون أن يتحرك خيطه، أصابه الملل، صار يلعن يومه الأسود، الرزق غافل عنه تماما، فهو لا يدرك بأنَّ بين الرزق والحظ أُلْفة، أحدهما يبحث عن الآخر بصمت، فالعلة تكمن في النية والأسلوب لا في المحاولة.

كان السيد رداد قد عَجن حظه بالكسل والحسد دون بقية الناس، أينما ذهب وجد الباب مقفلا بوجهه، حتى في علاقاته مع أقرب الناس له، المشكلة ليس في الحظ؛ أنما في عزمه وسلوكه، فمن تعود على الهوان سهل الهوان عليه.

وقبل أن يحل الغروب، توتر خيط سنارته، أستبشر خيرا، أبتسم له الحظ ابتسامة صفراء، شاع في وجهه أمل ضعيف،

رأى سمكة لا بأس بها تلبط وتلعب قرب سنارته، تأملها، فلابد من أن يكلل يومه بالنجاح.
راح الأمل يتراقص في عينيه، أقترب من سور ظنه، شاعت في يقينه بهجة وحبور، تلألأت جوهرته، ها هي ماسة الحظ تلمع في قاع النهر.
كبرت أحلامه، تلقف صدى صبره، غازلته السمكة بدورانها حول خيط سنارته، أذكت مشاعره بالأمل، لمحها، قدر حجمها، أنها أكبر مما توقع وتمنى. اليأس لم يثنيه عن محاولاته، تابع عزمه، شعر بذاته تلف خيط الحظ في ذيل السمكة، الحلم أضناه، صار يشعر بلذة السمكة وهي مشوية، غمرت أنفه رائحة الشواء.
غدت لحظات اللين تجامل صبره، تحرق همومه، تبدد يأسه، تجله بعيدا عن بركة الصمت، تمده بنشوة فرح.
وجف في مكانه حين حركت بذيلها الفضي موج النهر، كأنها حركت في أعماقه حاسة الشم والاشتهاء، بات يستلذ طعمها في خيال، يستمع لأزيز شواء اللحم المقدد. صار يكلم نفسه:....

- أنها كبيرة تكفي خمسة أشخاص، جذابة، من نوع الشبوط، أطيب أنواع السمك النهري، يا إلاهي أعني على صيدها. يا إلاهي ؛أنت لطيف فألطف بي، دع زوجتي تفرح بصيدي....

ربما السمكة تمثلت له بالحظ، ربما حظه تمثل بالسمكة، ربما الشيطان يريد أن يغريه، ربما هذا قدره الذي يبحث عنه بين الرغبة والرجاء.

بات يرمي سنارة حظه مغريا السمكة، يعبئها من دود الأرض، فتارة يتحرك الخيط بفعل حركة الرياح والموج، تارة تهزه السمكة بذيلها لتتوجس استعداد رداد في رد فعله، كأنها وجدت فيه سلوة تلاعبه وتتحايل عليه.

باتت السمكة تدور حول الطعم، تشده برفق، وأحيانا تضرب الخيط بزعانفها فتشد أنتباهه. أضحى يدرك غايتها وهي تدرك غايته، أصابته نشوة أمل عززتْ صبره لمتابعتها.

مثلما سرّتْ السمكة بوجود العم رداد وهو يفر لها الدود، سرّ بوجودها محفزة الأمل في ذاته.

السمكة تتأمل أن تسد رمق جوعها، ورداد يتأمل أن يسد رمق جوعه، لن يقويا على المماطلة طويلا، فهيَّ بحاجة لغذاء يعينها على الحركة، وهو بحاجة لرضا زوجته الحزينة.

سحبت الخيط برفق بفمها من طرفه العلوي، أدركت خطورة الشص. لذا حاولت إيهام رداد، كي يسحب الخيط بقوة مفرطة عسى أن يفلت الطُعم من الشص، تكررت الحالة عدة مرات فلم يستجب الحظ لها.

كأنَّ الجوع قد هرس معدتها، فتهاوت قواها، فاستسلمت لحدة أنيابه. بزغت زعانف الشك تنبت في جسد الطرفين، فهجست بنية الغدر منه، وهجس بنية سرقة طعمه.

في محاولتها الأخيرة ودت أن تقتنص الفرصة لخطف طعمه، إلا أنها تفاجأت بنتلة قوية لخيط سنارته، لم تستطع الإفلات من غدره، تعلق الشص بجانب من جسدها.

ثقل الخيط، استقام بسبب حركة السمكة اللاإرادية، أهتز الخيط بيد رداد، فرح بنجاح محاولته، سحب خيطه بقوة للأعلى،

ارتفعت السمكة فوق مستوى الماء ومن ثم هوت لقاع النهر ليفلت الشص عن جسدها، تاركا شرخا بليغا في جانب من بطن السمكة لتنزف دما غزيرا.
بدت الدماء تتدفق من موضع الجرح، لم تكتمل فرحة رداد ولا اكتملت نيتها بسرقة الطعم، صار يلعن حظه العاثر والقسمة البخيلة الملتصقة به، سقطت السمكة لثقل وزنها وكبر حجمها من جهة، ولقوة العت الذي استخدمه في سحب خيط سنارته، دلالة على غشمته وعدم درايته بفن الصيد.
أنتشر الدم في محيطها الخارجي، اصطبغت المساحة المحيطة بها بلون الدم القاني، صارت عرضة للافتراس من قبل الأسماك الأكبر منها حجما، فرائحة الدم تزكم أنوف الأسماك، كما للون الدم جاذبية وفضول في عين الاسماك المفترسة.
بات وضعها ينذر بخطر المصير، لاذت تبحث عن ملجئ يكفلها شر الأسماك المفترسة، فالشر آت ولابد منه، لربما يحيط بها عن قرب دون أن تدرك ذلك.
أنزوت بين ثنايا الطحالب والحشائش خلف الصخور المتراصة في عمق النهر، تحت صرة العتمة، في دهاليز وأخاديد المنعطفات. باتت تبحث عن مأوى يلفيها، يكفلها شر الأسماك الكبيرة.. لكن ذلك لا يمنع الدماء من أن تتدفق، صار الحال يرثى له، لا تستطع مداواة جرحها دون توقف ذلك النزف.
الشرخ واسع، لم يلاعبها رداد مثلما كانت تلاعبه. لم يراعي حاجتها ويرأف بها.
علم الصياد بمصابها من خلال بقع الدم المنتشرة في المكان، لابد لها من أن تطفوا بعد أن تفقد جهدها ووعيها.

صار يتمعن في أفق النهر، عيناه شاخصتان في كل الزوايا، لا زالت الشمس تدر ضيائها، تبعث دفئها عبر الأثير المستطير، تشحن ذاته ونيته بطاقة الصبر. لازالت الرؤيا واضحة تسمح له بالمراقبة عبر الأفق، ولازالت جعبته فيها شيء من الحظ.

فيما احتارت السمكة في سلوكها، لم تعد تحتمل ضعفها، افتقدت توازنها، كلت، تعبت، استسلمت لقدرها. لم يخب ظن الصياد بمصيرها، ها هي بدأت تطفو فوق سطح النهر، صار الموج يتلاعب بها، ينقلها لمصيرها القادم، طفحت على السطح منقلبة على ظهرها، فاقدة الوعي نتيجة نزق النزف.

صار منظرها واضح في وسط النهر كخرقة بيضاء يتلاعب بها موج النهر مع التيار الجاري، أدركها بنظراته الثاقبة، أستعد لها، خلع ثيابه، ركنها جانبا قرب الصخرة التي يقف عليها، فهي لا تبعد عنه سوى أمتار قليلة.

الزمن يجري مع جريان النهر، وكلما تأخر في سعيه سعت المسافة بينهما، لذا قرر أن يقفز خلفها، صار يعوم باتجاهها، لم يعد هناك فسحة للتفكير، اتخذ قراره وغطس في النهر، صار يعوم باتجاهها، قارب أن يدركها، صار على بعد خطوات منها، وقبل أن يمسكها كأنها أحست بوجوده، غطست أمامه، اختفت عن ناظره، تدحرجت مع المياه الجارية.

صار يلتفت يمينا وشمالا، إحتار في ظنه، لم تتأخر في غطسها، ظهرت على مرأى منه تدحرجها المياه. سعى خلفها، لازالت على قيد الحياة، لازال فيها رمق من الروح يساعدها على الغطس، متعلقة بخيط الحياة، تراءت له كقشة تهفو بها الأمواج، أنها لحظات احتضار وتشبث برمق الحياة.

مضـــى خلفهـــا مســـرعا، يتخـــبط بذراعيـــه وقدميـــه، فهـــو لا يـــتقن السباحة على أصولها، كان بدائيا في عومه.
قبـــل أن يـــدركها كانـــت قـــد غطســـت مـــرة أخـــرى، لربمـــا تكـــون غطســـتها الأخيـــرة، تبـــدو لا تريـــد أن تستســـلم لـــرداد، وكأنهـــا باتـــت تخدعـــه، تلاعبـــه، شـــيء مـــن هـــذا القبيـــل، هكـــذا شـــرع ظنـــه فـــي تفسير حالتها.
ألتفـت للخلـف، شـاهدها تلـبط بحركـات لولبيـة بطيئـة، أنهـا أكثـر بعـــدا ممـــا كانـــت عليـــه، لـــن يتـــرك رزقـــه عرضـــة للأســـماك المفترسة، لابد أن ينال منها.
انحـــدرت فـــي الميـــاه الســـريعة البـــاردة، يـــا إلاهـــي أعنـــي عليهـــا، صار يستجير ربه. صار يكلم نفسه:....
- كيـف سأصـل إليهـا، أشـعر بـالبرد يقرصـني، ومـع ذلـك لـن أتراجـع، أنـه النصـيب الموعـود، فمـاذا سـأقول لزوجتـي، كيـف أبـرر لهـا خيبتـي، دعنـي أفلـح أمامهـا ولـو مـرة فـي حيـاتي، دعني أريها لون الفرح ليشع في وجهها....

جالـت فـي فكـره خـواطر شـتى شـدت مـن أزره، دفعتـه للأمـام، لابـد مـن الإمسـاك بهـا بـأي حـال مـن الأحـوال، رغـم عمـق النهـر وبـــرودة الميـــاه وســـرعة جريانـــه. كانـــت قـــد أغرتـــه بحجمهـــا، جرجرتـــه خلفهـــا، وصـــل لبقعـــة صـــخرية كلســـية يصـــعب المشـــي عليهـــا، الطحالـــب التـــي تفتـــرش الأرض تصـــبح كالصـــابون فـــي ملمســـها تحـــت المـــاء، لشـــدة طراوتهـــا، مـــن جانـــب آخـــر الـــرؤوس الكلســـية تكـــون حـــادة ومدببـــة، فهـــيَّ تخـــزق القـــدم كشـــفرات حـــادة، كـــدبابيس مثبتـــة فـــي قـــاع النهـــر، تمنعـــه مـــن الوقـــوف والمشـــي

عليها. لسرعة جريان الماء والزلق الذي تصنعه الطحالب حكم وقرار.
هكذا صعبت عليه الحالة، لابد من العوم السريع، لتجنب المخاطر التي لا تحمد وقعها، إذا لابد من السباحة. بذل جهدا باتجاهها، قدر بعدها بعشرة أمتار، ومع مرور الزمن صار يقترب منها، ها هيَّ ترق أمامه على بعد خمسة أمتار، لابد من سعي أكبر، شحذه أمله لبلوغ مبتغاه، آزرته رغبة النيل منها، ها هي على بعد خطوتين، دفقته بعزم جديد، أمسى يسبح بجهد غير معهود، دخلت بين قوس السيطرة والإصرار والتحدي، ها هي قد فقدت قواها تماما، استسلمت للقدر، ليس لها قدرة على المراوغة والغطس مرة أخرى.
غدا الحلم يتلألأ في عينيه كقنديل بهجة، السمكة في عداد المنال، يلتمس حضورها بناظريه. هجس بها فكرة تتدحرج بين طيات الأمواج، ستنقله لمصافي العز والكرامة، سيبدد بها ظن زوجته والمغرضين بقدراته.
كان الحظ قد غاب عنه في سبات طويل، ها هو امامه يتقمص شكل السمكة، خطوة أخيرة ويحتفل باللقاء به. النجاح والفشل يصاحبان حظه بذات المسار والدافعية، أحدهما أقرب من الآخر إليه. لابد من الظفر بالسمكة، كان قد ذاق مرارة الفشل مرارا، أنه سلاح ذو حدين، أما أن يقتل صاحبه؛ أو يعطيه دفقا قويا من العزم يجنبه المهازل...
في الحقيقة تكور الفشل في الذاكرة، كالأرضة الدائرة في لحاء الشجر، هو آفة من الوهم ينهش الذهن، يدور بين فلك الفكرة، ممكن النيل منه وردم جداره بالعزيمة والإصرار..

لـذا شـد مـن عزمـه خلـف السـمكة، اسـتند علـى عصـا الإرادة وضـوء الفكـرة والقمـر المنيـر، الفرصـة مواتيـة أمامـه ولـن تتكرر. فإذا ما نجح في الحياة مرة واحدة؛ لن يعود لدكة الفشل ثانية، لن يدع مهازل الضعف تغلبه مرة أخرى.

علـى الـرغم مـن أن العقـدة كبـرت بـين الصـياد والسـمكة، إلا أنـه بـات يمسـك بـرأس خـيط، فـلا يمنعـه عنهـا سـوى خطوتـه الأخيـرة، سـوى متـر مـن المسـافة لينتشـل ذاتـه مـن واقـع بؤسـه. لابـد مـن المجازفـة لحسـم الصـراع، لـن يحيلـه عنهـا سـوى القـدر، ليعـود مـبجلا بالنصـر كجنـدي عصـامي، اسـتمد قوتـه مـن ضـعفه موقفـه في مواجه عدوه.

أنـدفع نحوهـا بحـزم وقـوة، تعلـق برمـق الحلـم المتـدحرج أمامـه. هـفَّ ذراعيـه بسـرعة الحركـة، بـديا كمروحـة قـارب وهـو يـدفع بالميـاه خلفـه.... وقبـل أن يخطفهـا؛ اقتنصـتها سـمكة أخـرى أكبـر منهـا، صـعقه القـدر، تجلـد فـي مكانـه، خـرَّ صـريعا أمـام المفاجـأة التي هزت أركانه، أنه الصراع من أجل البقاء.

كأنهـا كانـت علـى درايـة بنيتـه، فشـرعت تنافسـه علـى الفـوز بهـا، بتلـك الخطـوة كانـت قـد أجهـزت علـى أحلامـه، أنهـت فصـول مسـرحيته. إنهـا أرادة الله والحـظ الـنحس، لـم تكتمـل فرحتـه، لـم تكتمـل فكرتـه، لـم يفلـح عزمـه، بقيـت أمـوره معلقـة علـى أعمـدة الفشل كجثامين بؤس ترهبه.

أصـيب جسده ببـرود تـام، قطـب جبينـه، أصـيب بهبـوط مفـاجئ فـي ضـغط الـدم بعـد الجهـد المضـنى الـذي بذلـه خلـف السـمكة، تـزامن مـع وقـع الصـدمة التـي أرخـت عضـلاته. لـم يعـد يسـيطر علـى ذاتـه فـي دحرجتـه وسـط التيـار، مثلمـا جـرف السـمكة صـار يجرفـهُ بـين

منعطفات سيره. لم تعد قواه تعينه على مواجهة ديناميكية الحركة المتدفقة من باطن الأمواج، لم تعد أطرافه تعينه على المقاومة والتحدي، أصابها الإنهاك والخدر.

كغصن بات ينحدر مع التيار، تارة تغطسه موجة، وتارة تطفو به. هجس بذاته يبتعد كثيرا عن حافة جرف النهر. حلَّ به ما حل بحال السمكة. كانت الشمس قد رقدت في جوف الغسق، الظلال يفترش اليباب، الرعب غشي ثنايا الفكر، عبث في حراشف القلب، أضحى وحيدا في مواجهة الموت، يكاد لا يرى في محيطه من يستنجد به، صراخه لا يتجاوز حدوده، لا أحد يسمعه في ذلك الوقت الخامل الكظيم.

" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ". صدق الله العظيم.

حاول أن يعيد توازنه، أن يقاوم هذا المد من الرعب والخوف المحيط به من الموت الزاحف نحوه، أصيبت بتشنجات، جعلته يستسلم لمصيره الأخير. أدرك نهايته، صار يستنجد بالرحمن والشيطان، يصرخ بأعلى صوته ولا من يستجيب، بل صار يرتد إليه صداه بالخيبة.

امتلأت بطنه بالمياه، تقطعت أنفاسه، بات يشهق ويغطس، لم يستطع فك أحجية اللغز المطروح بينه وبين السمكة، مثلما جردها من حياتها؛ جردته من حياته. العين بالعين والسن وبالسن والبادي أظلم. في نهاية المطاف غطس غطسته الأخيرة بعد أن انتزعت إرادته، فلم يعثروا عليه إلا جثة هامدة في سواحل بغداد الجنوبية.

حـاول أن يلعـب مـع الحـظ لعبـة القـط والفـأر، لـم يـدرك أسـرار اللعبـة جيـدا، فـالنعم التـي يـتم تجاهلهـا تتبخـر، ومـن يسـتهين بالفرص يستهين به الزمن.

* مـن موروثـات الوالـدة العزيـزة طيـب الله ثراهـا وجعـل مثواهـا الأخير الجنة بأذنه تعالى.

مملكة النساء

يحكى بأنه كان هناك شابا يافعا قوي البنية فقير الحال، يعمل مزارعا في حقل أحد الأشرار، ود أن يتزوج أبنت سيده بعد أن هام بها وهامت به، غير أنه اشترط عليه مهرا يفوق قدراته، تقديرا لحسن ومكانة أبنته بين بنات القرية.
ذلك ما دعاه أن يستعين بنصح الأخيار، فذعن لرأي شيخ بعد أن مل التوسل والرجاء. قال له:...

- عليك أن تغير عملك وتسعى خارج حدود القرية، عسى أن يستيقظ حظك بين العباد وان يفلح فألك وتنال المراد.

ترك الشاب قريته في ليلة ظلماء، دون أن يخبر أحدا عن وجهته، دام به المسير أياما وأيام، صار يشكي عسر الظرف والعناء والوحدة، وصل في سيره لنقطة أشبه بالخواء، لنأيها وسجدة المساء.
لذا ود أن ينام تلك الليلة في كهف صغير مقوّر في سفح هضبة صادفته في الطريق. دخل الكهف، هجس به كهف يمتد جذوره لعمق التأريخ، قديم قدم الخليقة، دثرت معالمه صوره على الجدران، وجد فيه من الآثار بقايا قُلل ومعول صغير مدفون وسط الكهف. يبدو عمره يتجاوز عمر الحضارات.
لجهده وجوعه بعد مسير طويل، أستسلم لرقاد كان قد أغشى أجفانه، أمتد على ظهره في وسط الفج كالموتى، لم يأبى للحيوانات المفترسة من أن تفترسه، لحاجته للنوم وهوانه.. وهو غائر في سكرة النوم؛ حلم بحبيبته ترقد جانبه، تعتني به، تقبله، ثم همست بأذنه قائلة له:...

- يا حبيبي، تحت رأسك يوجد كنز ثمين، أن أفلحت في إخراجه سيجعلك من أغنى رجالات القرية..

في تلك اللحظة فز من نومه وهو مبهور من حسن فأل حبيبته، غارق بفيض ذلك الامل الذي يبحث عنه، جلس في مكانه وعينيه تدوران في أرجاء الكهف، فلم يجد غير ذلك المعول البالي...
أعاد شريط الحلم على ذهنه بشيء من البهجة والسرور والتركيز، أخذ بيده المعول الصغير وصار يحفر في موضع رأسه كما أخبرته حبيبته.....
خلال الحفر كان قد لمح في الكوة التي حفرها حجرا صغيرا يمنعه من تكملة مشوار الحفر. قرر قلعه من مكانه. وهو يحاول برفشه الصغير إزاحة الأتربة من حول الحجر، وإذ به يكتشف بأنه راس تمثال بحجم طفل صغير.
فرح كثيرا وصار يعتني به، محاولا إخراجه من الكوة بيسر، وما أن رفع التمثال من موضعه؛ حتى خسفت به البقعة التي تحت قدميه، ليسقط على حين غفلة في هوة عميقة دون أن يعلم عمقها ومداها....
أفتقد وعيه، فلم يفق إلا بعد أن مر يوم على سقوطه في الجب. هكذا قَدَّر. وما أن عاد لوعيه ورشده؛ حتى وجد ذاته مرمي تحت شجرة تفاح قرب نبع ماء زلال. أغتسل، شرب حتى أرتوى، تناول تفاحة، ثم ود أن يستطلع المكان، نحا في سيره مسلكا حجري أنحرف به يسارا، ليجد ذاته تخور في مدينة جميلة كمدن ألف ليلة وليلة، لفسيفساء الأبنية ونظافة الطرق وكثافة الأشجار وانتشاء ضوع الورود في السبل، ما أبهته وجدها كل ساكنيها من النساء ذوات الفتن وحور العين.

وما أن وجدنه يجوب الشوارع؛ حتى القين القبض عليه، قيدنه إلى قصر الملكة.
وجد ذاته أسيرا مسجونا في غرفة من غرف قصر الملكة. الغرفة تحتوي على سرير من خشب الصندل وفرشة من

الحريـر، فيهـا نافـذة تطـل علـى بحيـرة الطيـور، تحـيط بـه نسـاء وخـدم أحـداهنَّ أجمـل مـن الاخـرى، لشـدة النـور السـاطع فـي مفاتنهن.

حينهـا كـان قـد نسـى وجـه حبيبتـه التـي تماهـت فـي رشـفة مـن حسـن تلـك الفتيـات المحيطـات بـه. صـار يجهـد ذاتـه محـاولا تـذكر شـيء مـن ماضـيه دون جـدوى، جـرد تمامـا مـن كـل مـا كـان يربطه بماضيه، وكأنه ولد من جديد.

هكـذا نسـي قريتـه وأهلـه وحبيبتـه، ليسـقط فـي هـوة السـحر والجمـال، لا يعـرف عـن المدينـة سـوى فـيض فـتن تتـدفق فـي ناظريه أينما يتجه.

مدينـة دون رجـال... فيمـا سـبق كانـت هـذه المدينـة تقتـل كـل رجـل تطـأ قدميـه ارضـها، الفكـرة فـي ذلـك؛ بـان الرجـل فـي تركيبـة عقلـه جحـف، يحـب التسـلط، كبريـاءه يجعلـه يفـرض سـيطرته بـالقوة، يسـيطر علـى القـرار والسـلطة، يحيـد المـرأة، يجعلهـا تـنكمش علـى ذاتها. لذا لم يدعن رجلا يعيش بينهن في المدينة...

مـن عـادات هـذه المدينـة اختيـار ملكتهـا علـى حسـب نسـبة الجمـال المكنـون فـي الفتـاة. بتلـك القاعـدة يـتم حسـم الخـلاف بـين المتباريـات. لابـد أن تكـن الملكـة أجمـل نسـاء المدينـة، أكثـرهنَّ فتنة، أرشقهن قواما، لتتوج ملكة على المدينة.

كمـا أنـه يـتم اختيـار الملكـة لتتسـنم الحكـم كـل أربعـة سـنوات مـرة، وكـان قـد ألقـي القـبض علـى الرجـل فـي يـوم تتـويج الملكـة الجديـدة، فتـاة فـي غايـة الرقـة والجمـال، تحمـل مـن الفتنـة أجمـل مـا أبـدع الله في خلقه، لدقة معانيها واتزان طولها الرشيق.

مـا أن أدخلـن هـذا الشـاب الـى القصـر الملكـي، مـا أن وقعـت عليـه عـين الملكـة؛ حتـى أرفقـت بـه، كونـه ذا فـأل خيـر قـد حضـر فـي يـوم تتويجهـا، لـذا ودت الاحتفـاظ بـه، فـأمرت بإعـداد حجـرة خاصـة لـه فـي قصـرها، خاصـة بعـد أن وجدتـه شـابا وسـيما لا يكبرها إلا ببضع سنوات، لذا أحبته وودت الاقتران به.

كانت كل يوم تزداد به حبها وشغفا وفتنة، فقابلها بنفس الشعور والروح والطيبة؛ حتى تعلق بها تعلقه الروح بالجسد، تناسى كل ما كان يشغله ويربطه بماضيه.
مرت الأيام بسلاسة وكأنَّ الزمن قد أوطف الشوق بين عينيهما، غرز العشق في دروبهما؛ حتى ثبتت القناعة في قلبيهما.
إذا اقتنعت الملكة به زوجا لها، فأصبح ذلك الشاب المزارع ملكا على المدينة دون أن يدري.
قالت له الملكة بعد أن تزوجت منه:....

- كل شيء في هذا القصر هو تحت يديك. وكل من في المدينة يأتمر بأمرتك، ولك حق التصرف بشؤون البلد، ما عدا مكان واحد فقط يحرم عليك دخوله، أو تسأل عنه من باب الفضول...

فأشارت الملكة بيدها إلى باب مغلق معزول في الجانب الجنوبي من القصر، قالت له:...

- الا هذه الحجرة الوحيدة، غير مسموح لك بدخولها بتاتا.

مرت علية فترة وهو منتعش بوجوده في القصر، معزز، مكرم، عيشة لم يحلم بها، لا ينقصه شيء، التزم بتعاليم الملكة إلى أبعد حد، كان كالريشة بيدها ترسم به سعادتها.
ذات يوم بينما كان جالسا لوحد، تملكه الفضول وحب استطلاع ما تحويه تلك الحجرة من اسرار لا تود الملكة أن يعرفها. أراد أن يعرف ما تخفيه عنه الملكة، ما سر تلك الحجرة الغامضة؟ لماذا يمنع من الدخول إليها؟؟؟؟..
حيث دائما ما يكون للفضول دور في تحفيز الذات على تجربة ما هو خشن وخفي وممنوع، كأنه هجس بذاته قليل شأن، ولن يشعر بقيمة ذاته؛ حتى يكملها بفضول معرفة الاسرار. ود أدراك حجمه وقيمته في أعين الآخرين.

في أحدى الليالي استيقظ من نومه قبل أن يستيقظ الحرس، قرر أن يتجه نحو ذلك الباب المغلق تحت ستر الظلام، في لفتة خالف بها قرار زوجته الملكة، راغبا معرفة ما فيها من غرائب وأسرار.
الكل نيام، اتجه للغرفة المغلقة بهدوء، كالهمسة، ماشيا على أصابع رجليه حتى أدرك الباب، يغشيه الوجس...
ما أن فتح الباب؛ حتى عصفت به ريح سهكة، أغشت أحداقه، سحبته لداخل الغرفة كشفاطة، ليجد ذاته خارج مدينة النساء في ذات الكهف الذي سقط منه مغشي على روحه، عاد إلى ذات المكان الذي حلم به. وجد ذات المعول ومطواته ملقاة على الأرض بجانبه.
حاول جادا إعادة الكرة ليعود للمدينة، إلا أنه لم يفلح بمسعاه، أخذ يتفحص المعول عسى أن يجد فيه حلا لألغز، وجد تحته عبارة مكتوبة عليه بخط الثلث " لا تحاول الكرة، الفرصة مرة واحدة فقط " حينها فهم مغزى ما جرى له، شعر بالندم الشديد على عدم التزامه بتوصية الملكة.
لم يُخرج أدم من الجنة الا شيطانه، ذلك الذي وسوس له فأسقطه في فخ الفضول، ليعلمه أن يقتنع بما قسم الله له من رزق. هكذا الشاب وجد ذاته خارج القصر، بعد أن وسوس له شيطانه، لم يرضى بقسمته ونصيبه، فعاد فقيرا معدما كما كان، يبحث عن مهر لبنت المزارع....

الملك والذهب

كان ياما كان في سالف العصر والزمان، ملك من الملوك الشجعان، صديق الأنس والجان، لما له من قلب رهف وفيض حنان. كان يحكم بالعدل والإحسان جزيرة أسمها الزبرقان، جزيرة نائية، صحراوية، صغيرة، غارقة في وسط البحار، لا يزيد عدد سكانها عن بضع الآلاف من البشر، تعتمد في رزقها على صيد الاسماك والطيور البرية.

هذا الملك العال الشأن كان قد أحب شعبه، وشعبه أحبه، لورعه وعطفه وإنسانيته. كانت له زوجة غاية في الجمال أسمها صدف، شاءت أن يخطفها القدر في ولادة أبنتها البكر لؤلؤة، تلك التي تفوق أمها حسنا وجمالا، أشتد حزنه عليها؛ حتى أنه قرر بأن لا يتزوج إمرأة أخرى لشغفه الكبير بها، ودها تبقى شاخصة في ذاكرته كالماسة، حتى يدركه الأجل. كلما داعب لؤلؤة تذكرها، فيخفق طيفها في خياله كشهقة ودمعة، فيختلج صورها من ذاكرته، فيتذكر لحظات سعده وأنسه معها.

هكذا بقي حزينا على زوجته فترة أربعة سنوات وهو يعتني بـ لؤلؤة اعتناء الأم بطفلتها، فلم ينسى دوره كأب حنون قط؛ حتى كبرت وترعرعت أمام عينيه فانبجست بالفتنة من رأسها لأخمص قدميها، صارت شعلة تبهج حياته برقتها وحيويتها وإذكائها، أفضت عليه سعادة تنسيه أرقه وهمومه- تلك الطفلة صارت ولعه في الدنيا، وصار لها حضن أمان ومستقبل.

ذات مساء وهو يتجول في أطراف المدينة يتفقد أحوال الرعية، وجد رجلا كهلا انهكه الجوع والعياء وهو يحمل يعمل على جمع الحطب.

لتواضعه وشدة ورعه، نزل عن عربته، ود التعرف على حاله. أخذ بيده، سار معه الطريق حتى أوصله بيته المترامي في أطراف المدينة، كان قد عرف منه خلاله بأنه يسعى في جمع الحطب لتربية أبنته الوحيدة تفاحة، تلك التي يخاف عليها من الطير أن يخدش حيائها، لفتنتها وحسنها وكمال تربيتها، ولفتية عمرها العشرين.

ما أن أدرك البيت؛ حتى فتحت له الباب تفاحة، فأعجب بفتنتها ورشاقتها وانبساط ملامح وجهها، أوهجت في ذهنه فكرة لماحة، لمعت مزاجه، دغدغت قلبه، حركت عواطفه. تلك الفكرة استحوذت على مشاعره، طافت بخياله؛ ارتقت بصفاتها وحيائها عبق انفاسه. أعجب بفتنتها، تعلقت بذاكرته، هجس بها قدرا يكمل به قيافته وسعادته وحياته.

هكذا دخلت تفاحة مزاج الملك فأحبها من النظرة الأولى، سيطرت على افكاره ومشاعره بفتنتها وحيائها، لذا ودها تكون شريكة حياته وأم للؤلؤة، وعسى أن ترفع عنه وعنها كاهل قيود الوحدة السليطة.

لذلك طلب من مرافقه تسجيل أسم الرجل وعنوان بيته، واستدعائه هو وأبنته يوم الخميس القادم لحفلة غداء في قصره، بمناسبة تتويجه ملكا على العرش.

في ذات الوقت كان قد شكى ذاته لصديقته الجنية لثقل هم الرعية وضعف إمكانات مملكته لتخفيف واطئة الفقر الدائرة في البلاد بين شعبه. لذا دعا ربه بأن يمن على مملكته الخير ليسعد شعبه، فقال مع ذاته الأبية:...

- يا رب؛ لو كنت أملك قناطير الذهب وفضة؛ لجعلت كل فقراء الجزيرة أغنياء.

حينها سمعت همسه الجنية الورعة، حنت عليه وودت تطيب خاطره، فقالت له:....

- يا جلالة الملك، أني سمعت دعائك وقد صعبت عليَّ حالتك، لذا سأحقق لك أمنيتك مثلما تريد وتسعى..
- كيف يا جنية، هل لك ان تعلميني؟
- سأضع في يديك **قدرة التمكين**، سأجعلك ساحرا، بحيث ما أن تلمس الشيء بيدك الكريمة حتى يتحول ذلك الشيء إلى ذهبٍ أو فضة، ولك ذلك من صباح يوم الغد الخميس.

شكر الجنية التي حلت له معضلته وأزمته وفقر حال جزيرته.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ باكرا بنشاط غريب وحيوية، ود غسل وجهه بالماء والصابون، فاتجه إلى المغسلة، ما أن أمسك الصابونة بيده حتى تحولت لقطعة ذهب!!.. بهت في داخل نفسه، تعجب من صحة الأمر، فلم يصدق حاله، أخذته النشوة والفرح فتناسى ذاته ومركزه، بذلك أخذته ساقيه تطير به في ارجاء القصر بتلك النشوى والفرح، صار يلمس الجدران والتحف وكل شيء يصادفه، حول القصر لتحفة ذهب وفضة، أنطلق خارجا لحقوله ومزارعه وبستان الجزيرة الوحيد، حيث قرر في داخله تحويل كل أشجار المملكة إلى فضة وذهب.

أخذته النشوة، نسي حاله، توجه لمزرعة الدواجن والأبقار، صار يلمسها الحيوانات الواحدة تلو الأخرى حتى تحولت أبقاره وخرافه وطيوره ودجاجه وكلاب الحراسة لتماثيل بهيجة من ذهب وفضة تلفت الأنظار، تحول بستانه لعالم فضة وذهب، حينها فرح فرحا شديدا في داخله....

حول شارع الموكب لتحف من فضة وذهب، فتحولت مملكته لجنينة من فضة وذهب. جنينة صفراء يختلجها نور من ذلك

المنظـر البهـيج، بـدت الجزيـرة ككـوب بهـي جـانح بـين أمـواج البحر العاتية.
كانـت النشـوة قـد غلبـت علـى عقلـه، فغطـت علـى فكـره، لهوسـه بتفاحـة التـي أفرجـت عـن كربـه وارسـخت فـي داخلـه حيويـة جديـدة. بظهورهـا فـي حياتـه جـددت ورود حياتـه بعـد أن رفعـت عـن كاهلـه غـل الوحـدة والوحشـة المقيتـة التـي كبلـت سـعيه وشددت الخناق عليه بعد أن غربت عن دنياه شمس صدف...
كمـا أن فـيض بهجتـه وانغماسـه فـي ريـق الغنـى قـد أضـفى عليـه البسـمة والرفعـة، أزاح عـن ذاتـه والمملكـة مقت الأزمـة التـي كـان قد عانى منها، بعد أن أغدقت المملكة بالثراء الدائم.
كـان مبعوثـه قـد جلـب إلـى القصـر الرجـل الفقـر وأبنتـه الجميلـة تفاحـة قبـل أن يعـود الملـك مـن جولتـه بسـاعة زمـن.. كمـا كـان قـد طلـب مـن حاشيته طبخ وجبـة دسـمة مـن مـا لـذ وطـاب علـى شـرف الرجل المسكين إكراما له ولأبنته تفاحة التي أغرم بها.
مـا أن حـل الملـك حتـى جـالس ضـيفه وأبنتـه علـى سـفرة طعـام مذهبـة فـي وسـط جنينـة مـن ذهـب وفضـة، وقـد أوضـح أعجابـه بتفاحة إلى الرجل المسكين لإزالة استغرابه، فقال له:...

- سـيدي الكـريم انـا قـد دعوتـك لقصـري هـذا لأنـي أعجبـت بأبنتـك تفاحـة، وأود أن أخطبهـا منـك لتكـون لـي زوجـة وشـريكة حيـاة وأم لأبنتـي لؤلـؤة التـي افتقـدت أمهـا منـذ أربعة سنوات. فما هو رأيك بأن يكون الملك نسيبا لك؟
- الـرأي رأيـك يـا سـيدي، نحـن مـن رعايـاك ونتشـرف بـك كأب وصهر لنا.

قال ذلك الرجل الفقير والفرحة لا تسع قلبه.
تهلـل وجهـه بـالفرح مثلمـا تهللـت وجـه تفاحـة بالحيـاء والخجـل، فغطـت بوشـاحها أفـق وجههـا النيـر، تلـك الفرحـة التـي توهجـت علـى ثغرهـا كأنهـا قـدحت مـن الفتنـة الذائبـة بمعانيهـا، فأشـرقت تنثـر نـور حيائهـا ومحياهـا علـى وجـه الملـك. حتـى أنهـا لـم تنـبس

بشفة. كانت قد ترقرقت عينيها بدموع الفرح، هجست بذاتها كطير حل على القصر بعد أن نقلت من كوخها البذيء لترتع بأضواء البهجة.

بعد ذلك قدمت الحاشية وجبتها من المائدة والتي كانت بمثابة دجاجة صغيرة وطبق رز وشوربة عدس.. ما أن نظر الملك إلى السفرة الفقيرة حتى استدعى طباخ القصر ليوبخه على قلة الأكل وبساطته، فقال له:....

- لماذا هذا البخل أيها الأشعث، ألم أنبهك على وجود ضيف عزيز علينا؟؟؟
- بلا يا سيدي، لكني لم أجد شيئا أطبخه، الدواجن والأبقار تحولت لتماثيل ذهب، مثلها الفواكه والخضروات، فلم أجد سوى هذه الدجاجة الفارة من المزرعة.

حينها سكت الملك فلم ينبس بشفة بعد أن أحس بغلطته وطياشه.

فما أن أمسك الملعقة بيده حتى تحولت لقطعة ذهبية، فخاف أن يلمس الفاكهة الموضوعة على الطاولة، فصار الحرس يأكله بيده.

بعد أن أنهى الغداء أنسته فرحة ذاته بتفاحة، فتقدم منها ليقبل يدها ويأخذها في جولة تفقدية يعرفها على القصر ومحتوياته.. ما أن لمس يديها حتى تحولت لتمثال باهر من الذهب وثياب لماعة من الفضة كثياب العرس.

حينها حزن عليها حزنا شديدا، باتت الدموع تنهمر من مقلتيه، افتقد سروره بالذهب الذي صار يفيض بين يديه، حينها جلس على كرسيه مغشيا، يفكر بأمر الجنية عسى أن تنجده من حيرته.. في تلك اللحظة ودون أن ينتبه قفزت لؤلؤة في حضنه لتتحول هي الأخرى لتمثال صغير من الذهب بين يديه...

أشتد بكاءه ونحيبه، صار يلعن حضه العاثر، يبحث عن الجنية في أعماق فكره، وفي الهواء الذي يتنفس، والريح

العابرة على الجدران، عسى أن تخلصه من تلك الشائكة التي جلبت عليه الأحزان أكثر من الأفراح، تلك الجائحة كان قد غص بها، صار يكرهها، حملته الألم والمشقة.
حينها ظهرت له الجنية مواسية قائلة له:.....

- أنظر أيها الملك بعد أن حولت مملكتك لذهب لم يجد شعبك ما يأكل، ولم تجد من يروض لك حياتك وظرفك ويعتني بك ويزل عنك هموم الدنيا، فالذهب لن يعوضك مباهج الدنيا الأخرى. كان الله قد أعطاك الكثير لكنك لم تقتنع، كن قنوعا بما قسمه الله لك من رزق، فالقناعة كنز تجلب لك السعادة.

صار يتوسل بها ويندب حظه واستعجاله وهوسه بالذهب، ادرك بأن الذهب ليس ذات اهمية امام مغريات الحياة الاخرى، لا يجلب السعادة مثلما كان يظن. فقال للجنية:...

- أرجوك أعيدي إلي أبنتي لؤلؤة وحبيبتي تفاحة.
- سأعيد كل شيء لوضعه الطبيعي، وسأرفع عنك صفة التمكين، ستعود مملكتك إلى ما كانت عليه، وأن كنت تبحث عن الغنى ستجده بالعمل الدؤوب يفيض بين يديك.

حينها عادت الحياة لطبيعتها وتزوج من تفاحة وعاش عيشة سعيدة.

* من موروثات الوالدة العزيزة طيب الله ثراها وجعل مثواها الأخير الجنة بأذنه تعالى.

أبن آوى*

فترة عصيبة مرت على أبن آوى، عجز خلالها عن صيد ما يحلو له من طيور، ودواجن، وحيوانات ناعمة من يرابيع وأرانب وثعالب يعشق لحومها.
فترة عانى خلالها، نحل جسده، وهنت قواه، عجز أصابه، شيخوخة أرهقته. لم يعد قادرا على مجاراة أقرانه في فضاء الصيد.. تلك الحالة أضنكت صبره، أحالت امنياته إلى فقاعات تتفجر تحت أقدام رغباته.
بات يشتاق لوجبة دسمة تشفي غليله، تلبي رغبات معدته الشرهة، تطفئ شرر عينيه المفجوعة، تلك التي أبت أن تخلد للنوم إلا وهي غارقة بحلم فريسة تأملها. كأنَّ الطبيعة قد أخلت مسؤوليتها عنه فتخلت عن واجباتها تجاهه. اضحى لا يأكل إلا الجيف، تلك التي أعانته على البقاء حيا، كان يأكل من أجل أن لا ينكسر عوده قبل الأوان.
بقيّ على هذه الحالة زمنا يكابح جماحه دون أن يجد ما يشفي غليله ويطفئ جمرة مشتهاه، صار يتصيد بالممكن من جرذان وحشرات وفئران، حتى صار يستلهم الحشائش وأوراق الشجر، ليعوض قائمة الفشل الملحقة بمحاولاته.
وفي أحدى جلس على شاطئ النهر يتأمل أن تفك عقد فشله، حينها دق ناقوس عقله بفكرة غريبة انتشلته من وحل اليأس. استنبطها من صياد سمك عابر، حين كان يرمي شباك صيده في النهر من على كلك منحدر مع مجرى النهر. الفكرة أنعشت

أحلامه، صقلت غايته، غسلت همومه من الكدر، كما يغسل المطر أوراق الشجر، أعادت ثقته بنفسه من جديد ليستغل مهارته وحيله في تحقيق مرامه.

الفكرة هي: أن يسلك طرق جديدة لمبتغاه، طرق لم يتبعها من قبل، فيها خبث ومكر تسهل له حياته. فكرة يتفوق بها العقل على الجهد المبذل. أساليب جديدة تلائم سنه وقدراته وإمكاناته، تعينه على تعبئة معدته الشرهة بما لذة وطاب دون عناء وكلل، لا تكلفه مشقة التقصي والمغامرة والجري والمطاردة خلف فرائسه.

طرق سهلة غير مكلفة، تجعله يقترن بفرائسه دون تكلفة، تجعل فرائسه تجري ورائه، لتكون تحت يديه وجبات دسمة متى شاء، بحيث يجمع كل ما لذة وطاب من تلك الحيوانات البنفسجية الوارفة على سفرة مشتهاه.

الفكرة هبطت على فكره أشبه بفرقعة رمضانية، فززته من غفلته، الفكرة؛ هي أن يمثل دور الورع والتوبة على فرائسه.

أخذ يبني الكلك:{وهو عبارة عن قارب من سيقان الأشجار الطويلة، يربطها بحبل من الليف أو القنب لتأخذ شكل الحصير، يسندها بطوافات من الفلين أو إطارات العجلات والذي يستخدم لنقل البضائع عبر الأنهر، كان شائعا في نهري دجلة والفرات.

بعد أن بنى كلكه؛ انحدر بالنهر، جلس في وسطه، شرع برحلته مع طلوع الفجر، مع انسياب النهر نحو الجنوب. أرتدى جلبابا أبيضا، ربط رأسه بـ عُصّابةٍ بيضاء، علق في يده مسبحة طويلة، دلالة على توبته وورعه، وفي يده الأخرى

أرخي خيط سنارة صيد السمك. يتراءى لكل من يراه أنه عازم على رحلة طويلة لغرض جليل.

الدجاجة:-

أول من خدعت به الدجاجة المسكينة.... تراءى لها منظرا غريبا أشبه بالخيال العلمي، نتيجة المعاناة التي أرهقها بها أبن آوى فيما سبق. فهيَّ لا ترتعب إلا من أسمه، كابتٌ على أنفاسها، يتراءى لها في كل محفل، خاصة خلال غاراته المتكررة أثناء الليل.

الحلة الجديدة التي بان عليها خدعتها بسرعة، حركت أتراس فضولها لتستفسر على حقيقته، سارعت تسأله عن خطبه ووجهته؟

في تلك الأثناء كانت تلقط الحَب المنثور على ضفة النهر. لم تستطع أن تخفي هاجسها، أنبرت له فوق غصن ساقط، لوحت له بجناحيها، أنتبه لها. سألته بإلحاح:....

- هاي-- أبو الويو– ماذا جرى لك، هل جننت؟، ماذا أصابك؟ أراك على غير حالك.. إلى أين أنت ذاهب؟

أجابها أبن آوى ببرود تام وحنكة، ركب دوره على أفضل ما يرام، عبر لها عن غاية تراءت لها بصدق نيته، شعرت بتبدل أوضاعه كليا.. قال لها:...

- والله يا صديقتي أنا ذاهب إلى الحج، لأعلن التوبة أمام الملأ من أكل الدواجن والأرانب.

قالت الدجاجة التي أصابها الذهول:..

- هل أنت جاد؟... هل نيتك صادقة أم تود خداعي؟

- اقسم بالله أني تبت منذ فترة طويلة، عزمت على أن اذهب لأعلن توبتي، ليكونوا الناس شهداء عليَّ. ثم أني لست بحاجة لأثبات ذلك، فهي مسالة شخصية بيني وبين ربي، وأن الله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي من يشاء.
- أني صدقتك، هل أستطيع مرافقتك؟
- أكيد يا صديقتي، على الرحب والسعة، المكان واسع كما ترين.

حين إذ نطت الدجاجة المسكينة إلى وسط الكلك، بعد أن صدقته.

أطمأنت له، أجلسها على مقربة منه، ثم أخرج من جعبته غترة بيضاء ناصعة عصب بها رأسها، فيما كان انسياب النهر يجري بهدوء تام نحو الجنوب، سألته الدجاجة:..

- أرى بيدك سنارة! هل يعجبك السمك؟
- كما تعلمين الطريق طويل لربما تأخذ منا أياما وليالي، لابد من أن نأكل شيئا، وإلا فلن نصل أحياء. وها قد جلبت معي طبقا من الخبز يكفينا مسافة الطريق، رفع ملأة بيضاء بجانبه، وإذ بصف من أقراص الرغيف مخفية تحته، ذلك ما زاد من طمأنينة قلبها، أبصمت في قرارة نفسها أنه صادق في مسعاه.
- صدقتك، ربنا يجازيك كل الخير.

الديك:-

مع انحدارهم شاهدهم الديك الذي كان يبحث عن قرينته قرب جرف النهر، تلك التي اختفتْ عن ناظريه فجأة... تعجب الديك

مـن منظـر صـاحبته الدجاجـة وهـي جالسـة بجانـب أبـن آوى، ترتـدي فوطـة بيضـاء، والطمأنينـة واضـحة علـى محياهـا، أصـابهُ سـهم المفاجـأة، غـرق طـويلا فـي صـمته، تـرى مـا الـذي دفـع بهـا لتجلس بجانب عدوها ومفترسها؟ كيف تم إقناعها؟

لـم يسـتطع أن يصـمد طـويلا، هزتـه مشـاعره، لـوح لهـا بجناحـه مناديا عليها.

- هـاي... يـا حبيبتـي هـل أنـت بخيـر؟ مـاذا أرى؟ أكـاد لا أصـدق عينـيَّ! مـا سـر جمعكـم؟ مـا هـذه الأوشـحة البيضـاء على رؤوسكم؟ ..إلى أين أنتم ذاهبون؟

سيل من الأسئلة قد طرحها على وقع اندهاشه.

أجابه أبن آوى بيقين ورزانة.

- أنـي ذاهـب للحـج، أنـي تبـت مـن أكـل الـدجاج والطيـور والأرانب، وأني سأعلن توبتي أمام الملأ في مكه!

نادت الدجاجة عليه:...

- مـا رأيـك أن ترافقنـا يـا رفيقـي؟ تعـال لنعتمـر سـويةً، هـذه الـدنيا فانيـة، فأعمـل لآخرتـك قبـل أن يحـين أجلـك، فلـيس لنا في هذه الدنيا من مآرب غير حسن الختام.

تـاه الـديك فـي فكـره المضـطرب، إحتـار بـين عقلـه المحتـار وقلبـه المخـدوع بمـا تـرى عينـاه الواجفتـان، المنظـر أغشـى بصـيرته، رق فؤاده لحبيبته، في الوقت الذي أعياه فكره.

المنظـر خـادع، الحقيقـة شاخصـة أمـام عينيـه، والفرصـة مواتيـة لزيـارة الكعبـة، لا يسـعه الوقـت لتحديـد قـراره، حيـث الكلـك يجـري مـع جريـان الـزمن. الخيـار صـعب والقسـمة جـاهزة تنتظـر منه القرار...

وبعد أن تمحيص الفكرة لانت إرادته، قرر أن يرضخ لإرادة حبيبته، أن يستغل الفرصة السانحة بين يديه. ربما حقا أنه تائب، فالله يبدل النفوس في ليلة وضحاها. قال الديك:..

- هل تسمح لي أن أرافقكم ؟
- على الرحب والسعة، المكان واسع كما ترى، تفضل، أسرع، النهر جار، لا نستطيع التوقف أو الانتظار.
- حسنا سأرمي بنفسي..

رمى بنفسه مرفرفا بجناحية حتى سقط وسط الكلك، جلس بالقرب من حبيبته التي أظلته.

أخرج أبن آوى من جعبته غترة بيضاء جديدة، لف به رأس الديك قائلا له...

- سعيا شكورا وحجا مبرورا مقدما.

ثم شكره الديك على منحه فرصة الحج.

كانت الدجاجة قد أطمأنت تماما من سعي أبن آوى! بطمأنينتها، أطمأن الديك المخدوع. فيما كان أبن آوى قد رسي تماما على غايته رسو السفينة في مينائها، أستقر بثبات على واحة فكره وطول باله. تظاهر بكياسة والهدوء التام، فلم يتصرف تصرفا أهوجا، يفضح به سره ونيته.

البطة وعلجومها:-

وصل الكلك إلى منتجع للطيور، استغربت البطة من المنظر الذي يقترب منها، شاهدت أمامها جمع غريب لم تلفاه من قبل. صارت تكلم ذاتها:....

يا ترى...ماذا جرى لعالم الحيوان؟ أيمكن أن تكون هناك صداقة حقيقية بين المفترس والفريسة؟ أيمكن أن تبنى ألفة

بينهما؟ لا أستطيع تخيل الجاني والمجني عليه فوق مركب واحد! شذبها غرابة المنظر، وعقم تفسر الحالة.
دفعها الفضول إلى البحث عن صيغة معقولة، تفسر لها الحالة... الديك والدجاجة وأبن آوى في مركب واحد! يا إلهي! أعني على الصبر، سألت علجومها باندهاش:.....

- هل لك من تفسير يا علجومي العزيز تريح به بالي؟
- يا بطوطتي العزيزة: أنا مثلك في حيرة واندهاش، لم أذكر قد سمعت أو شاهدت من قبل حدثا يشبه الذي أمامي.

الفضول دفعها تستفسر عن سر التآلف بين شلة الأعداء:..

- يا هذا؛ بالله خبرني ما قصتكم؟ منظركم غير مألوف بتاتا، على الرغم من أنه يسر الجميع، هل أخبرتموني على ماذا أنتم مجتمعون؟ وما هذه الأوشحة البيضاء على رؤوسكم؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟

أجابها أبن آوى:..

- يا عزيزتي؛ أني ذاهب للحج، أني تبت من أكل الدجاج والبط والأرانب، أني سأعلن توبتي في الكعبة المشرفة!
- جميل جدا، الله يهدي من يشاء.. يا ترى كم ستستغرق هذه الرحلة المباركة ؟
- لا نعلم الظروف، ولكن بحدود شهر بأذنه تعالى!

كان يتكلم وهو يسبح بمسبحة طويلة براقة، أضفت المسبحة على هيئته وقارا، بات منظره أشبه بالمعتكفين في الصوامع.
قالت الدجاجة:...

- ما رأيكم بمرافقتنا، ليكون مسك الخاتم فلاح وإحسان وجنة الفردوس؟
- وهل تسمحوا لنا برفقتكم ؟

أجاب أبن آوى:..

- بالتأكيد، على الرحب والسعة، في زيارة الجماعة، ثبات وقناعة.

ارتقت البطة مع علجومها ركنا من الكلك. أخرج بدوره غترتان بيضاويتان، ربط بهما رأسي البطة والعلجوم.

بات المنظر يزداد غرابة وجاذبية، بحيث أحيط أبن آوى من اليمين واليسار بالدجاج والبط، وهما أطيب ملذاته، هذا المنظر أوحي للناظر صدق نية الشيخ (أبن آوى) في توبته.
بصعود البط والعلجوم يكون قد أمن وجبتي الغداء والعشاء.
أدرك أبن أوى قد نجحت خطته، لذا لم يدع شعورا للملل والكلل يتغلب على عزمه وإصراره في تكملة مشواره، لتجهيز أكبر عدد من الوجبات الدسمة التي حرم منها. أستمر بهدوئه وكياسته وخشوعه، خلف بلوغ الغاية المرجوة.
كان الوقت قد تجاوز الزوال، انكسرت الشمس نحو الأفق، بعد أن باتت تلهب السماء بصبغة الشفق قبل أن تودع نهار اليوم.

الأرنب:-

شاهد الجمع أرنبا يتدحرج في ظل الحشائش والأدغال، بعد أن نجا من مخالب صقر كاد أن يفتك به، لم يفلح الصقر بسعيه خلف فريسته، منعته عروق الأشجار والأدغال الكثيفة. كان

مرعوبان خائفا، وجد في الجمع الغريب المنحدر فوق الكلك فرصة للتنفيس عن النفس، أحس بالطمأنينة! نادى عليهم بصوت متعب أجش.

- هاي.. ما خطبكم؟ إلى أين ذاهبون؟؟

أجاب أبن آوى:..

- نحن ذاهبون إلى الحج، وأني تبت من أكل الطيور والأرانب، سأعلن عن توبتي هناك، الدجاج والبط، يرافقاني في رحلتي الميمونة.

نادت عليه الدجاجة المخدوعة، التي أصابها خدر الأمان تماما:...

- ما رأيك بمرافقتنا، لتكسب أجر الآخرة.

قال الأرنب الذي وجد في الجمع فرصة انتشال نفسه من الوجل الذي هيمن عليه.

- أتسمحون لي بمرافقتكم ؟

أجاب أبن آوى:..

- على الرحب والسعة، المكان واسع، أقفز حين نقترب من الجرف.

ثم مد له خشبة بجانبه حتى دكت الأرض اليابسة، فأنطلق الأرنب بخفته المعهودة عليها ليجد نفسه أحد عناصر المجموعة.

أرتقى الأرنب الخائف سلم المكيدة برشاقة، صعد إلى درك مصيره برغبة دون أن يدرك خاتمته. جلس خلف أبن آوى. فيما أخرج أبن آوى غترة بيضاء كالعادة، كما فعل مع رفاقه ليربط بها رأسه، دلالة على صدق النية والمسعى.

الثعلب:-

فيما هم غاربون برحلتهم وقبل أن تُزف الشمس لغروبها، انعكست صورتهم في عين الثعلب الماكر، الذي أنبهر من مزيج الجمع، أستهجن الموقف، نادى عليهم باستخفاف....

- هاي -- ما خطبكم أيها الجهلة! أين يمضي بكم مفترسكم أبن آوى؟

أجابه أبن آوى:

- أني ذاهب للحج، لأعلن عن توبتي أمام الملأ، لقد هداني الله للحسنى، فلزمت الصلاة منذ ذلك الحين....

هكذا صار يبرر مسعاه. فيما قالت الدجاجة:..

- نحن ماضون في سعينا، فلا تضيع فرصتك السانحة، هلم معنا.

قال الديك:

- لا تسيء الظن أن بعض الظن أثم.

قالت البطة:

- الخير فيما أختاره الله.

قال الأرنب:

- نحن جماعة، وعمل الجماعة أفضل من عمل الفرد.

عندها وجد الثعلب نفسه في خندق الوحدة، فلم يروق له ذلك، خاصة المجموعة متفقة على الفكرة والمنهج والهدف. لذا قرر الانتماء للمجموعة بمباركة أبن آوى، والشلة المخدوعة.

صعد الثعلب إلى الكلك بين مصدق ومخدوع.

كالعادة أرتدى غترة بيضاء لتوحي له بالإيمان، والنية الصادقة، والغاية الشريفة، خلف عزم الماكر أبن آوى .

*****

بعد أن دخلوا في عنق الغسق، بعد أن انغمست السماء بوحل الدماسة، شرع الظلام يجلد القلوب بشيء من الجوع والخوف والتعب، باتت البطون تقرقع، الآذان تطنن، تحول السخط لسؤال يدور في العيون الشبقة، متى سيجود عليهم أبن آوى من كرمه؟ الخطة نجحت تماما ويجب المحافظة على السرية والكياسة، ولابد من إتمام المهمة للآخر بنجاح...

لتتم الحبكة على ما يرام فأنه بحاجة لقفلة ينهي بها حيلته، إذا ما فلت أحدا من المجموعة، سيفشى سره، وبالتالي لن يستطيع تطبيق خطته مستقبلا، حينها سيعود أدراجه يعيش على الفاقة والحسرة... ذلك ما دعاه يقترح عليهم أبن آوى أن يستقروا هذه الليلة في جحره الكائن خلف تلال أعترت طريقهم، على أن يكملوا رحلتهم الطويلة مع غداة فجر مبكرين.

وافقت المجموعة المنهكة، الجائعة، المنقادة بسذاجة خلف أبن آوى.

دخلت المجموعة جحرا في وسط التلول خوفا من سطوة مجهول وشرور الإنسان. حينها تيقن أبن آوى بأن: ***الشيء الذي لم يستطع أخذه بالقوة، ممكن يحصل بالمكر واللين والخداع والحيل.***

دخلوا الجحر، جلس أبن آوى في المدخل كي لا يهرب أحدا من المجموعة، فيما بقيت المجموعة تنتظر من أبن آوى إكرامهم...

لكنه كان هامدا في مكانه كالحجر، لم يحرك ساكنا.

فـــي أول الليـــل بطبطـــت البطـــة بصـــوتها المـــزعج واق- واق، تبحث عن أي شيء تملئ به جوفها.
فزجر بها أبن آوى صارخا:...
- أصمتي يا وجه الشؤم، سيسمعنا الإنسان ويفتك بنا!.
ودون سـابق إنـذار أنقـض عليهـا وعلـى علجومهـا، فجعلهمـا لقمـة سـائغة فـي بطنـه. أسـتمتع بلـذة غابـت عنـه زمنـا طـويلا، سـد رمـق جوعـه، مـلأ جوفـه بوجبـة دسـمة. أضـحت البطـة والعلجـوم أول الضـحايا ضـمن سـرب ضـحاياه، تاركـا الـريش يفتـرش الأرض كبساط يقئه البرد.
وقبـل منتصـف الليـل سـمع قأقـأة الدجاجـة التـي أرهقتهـا رائحـة الـدم... قـاق – قـاق ---- ضـجر منهـا، ألتـف عليهـا، زجرهـا، أنقـض عليهـا، اِسْتَسَـاغَها كلقمـة بلمـح البصـر. عـدت وجبـة دسـمة أخرى ملأ بها جوفه المترقرق للذة اللحوم.
فيمـا أنتشـر ريشـها مـع ريـش الـبط والعلجـوم ليزيـد مـن لـين البساط نعومة ودفئا تحت قدميه.
لـن يكـون المفتـرس أليفـا وأن أبـدى رقـة فـي لحظـة مـا، لابـد أن يعود لطبعه الشرس الذي نشأ عليه، تلك هي سنة الحياة.
لا تأمن الشوكة وأن كانت في غصن وردة.
تعلقـت الشـلة بمصـيرها المشـؤوم، كـل مـنهم يتسـمر فـي عـين صـاحبه، الخدعـة لبسـتهم، جمعـتهم علـى سـفرة واحـدة، كـل مـنهم ينتظر لحظة تسفيره لجوف أبن آوى.
دب رعـب بأوصـال الزمـرة الباقيـة، تشـبعت أسـاريرهم خوفـا ووجـلا، كـل مـنهم خـنس فـي موضـعه، صـار أشـبه بورقـة الشـجر المصفرة.

غيـر أن الـديك كأنـه نسـيَّ نفسـه فـي وقـت الفجـر، فـأطلق لصـوته العنان مع أول الشروق.
أذن برفاقـه الغـافون ليـوقظهم مـن سـباتهم.... التفـت عليـه زاجـرا إياه، قائلا له:...

- ما بك جننت؟ أتريد الإنسان يعرف مكاننا.....

وقبـل أن يكمـل صـياحه أنقـض عليـه انقضـاض خـاطف، هرسـه بـين أسـنانه، فتبخـر كقطـرات المـاء فـي لحظـة القـيض، تاركـا خلفـه ريشه يتناثر في المكان تعفس بها الأقدام.

الفـرائس التـي تبخـرت، تركـت فـي نفـس الثعلـب والأرنـب الوجـل، طغـى صـمت علـى المكـان، لـن يسـتطيعا الهـرب وسـيف الخوف مسلط على الرقاب في المدخل.

أصـيب الأرنـب بارتبـاك وفـزع، أصـيب بإسـهال مقـرف مـع منتصـف النهـار، أصـيب بهلوسـة الجـوع والخـوف، ضَـغِيبَ بصـوت هـزيم مرتعـد جـراء الارتبـاك المـلازم لـه، أفـرج عـن غـازات ملئـت فضـاء الجحـر، لفضـها علـى شـكل ضـراط مقـرف، أزكمت بعفنها خياشيم أبن آوى.

ذلـك مـا أغـاظ أبـن آوى، فـانقض عليـه، جعـل قـدره بـين عينيـه، فأرداه وجبة غداء دسمة، لم يهنأ بها منذ زمن.

وقبل أن يفرغ من أكل الأرنب، تمتم الثعلب قائلا:.....

- أني أسمع صوت بشر قرب الجحر.

هنـا أرتبـك أبـن آوى! وهـمَّ خارجـا يسـتطلع أمانـة الجحـر، حـين إذ أسـتغل الثعلـب الفرصـة ليهـرب مـن قبضـة أبـن آوى، منقـذا نفسـه بفطنته وذكائه. قائلا:....

- ربـي؛ نجيتنـي مـن ابـن آوى فلـك عنـدي نـذر قربـة دبـس (عسل التمر)، على أن لا تريني وجهه ثانية.

الخدعـة بـذاتها كانـت درسـا وعبـرة لـه، علـى أن لا يثـق بعـدو مهمـا لانَ وأستر غله.

وهـو مـاض فـي طريقـه شـاهد قافلـة عـابرة فـي طريقـه، اسـتطاع أن يتتبعهـا ويثقـب قربـة مـن قرابهـا بأسـنانه الحـادة، فخـر منهـا دبس مراق. وبذلك قد وفى نذره.

المثـل الشـعبي يقـول (مـن يعـيش بالحيلـة يمـوت بـالفقر)، ينطبـق علـى أبـن آوى وكثيـر مـن أمثالـه فـي المجتمـع، الكـذب والخـداع لـن يدوم أبدا....

*"هـذه القصـة مـن مورثـات الوالـد العزيـز رحمـه الله واسـكنه فسيح جناته"

الديك والقاضي *

خلال سرحه في البقيع، وجد الديك بذرة شعير، التقطها، أحتفظ بها، فكر أن يستغل عقله الراجح في الاستفادة منها بممارسة الدهاء والحيل ضمن مضمار السذج من البشر، لتدر عليه فائدة وسعادة تغنيه عن مشقة الحياة.... فصار يشهر بها بين الملأ.

دخل في أحدى المقاهي التي يجتمع بها لفيف من الحمقى والسذج العاطلين عن العمل، الذين ليس لديهم ما يشغل بالهم سوى التبجح والملاسنة بهموم وقضايا الناس.

نادى بهم الديك.....

- من يريد بذرة شعير، من يريد بذرة شعير...

أحد السذج (رقم1) ود الاستفادة منها، فطلبها منه، فأعطاه البذرة ثم ذهب لداره.

وفي اليوم التالي جاءه طارقا باب بيته، طالبا بذرة الشعير منه، قائلا له:.....

- يوم أمس أمنتك على بذرة شعير، وأني اليوم أود أن أستردها، فلو زراعتها في الحقل، ستصبح سنبلة تحمل عشرات البذور..
- : لكني فقدتها خلال عودتي للبيت!----
- إذا سأشكيك إلى القاضي!

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه قائلا:...

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي بذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين.

قال القاضي للمغفل:...

- أعطيه قندة عجين مقابل الحبة التي أمنك عليها، وإلا ستسجن.

رضخ لأمر القاضي فأعطاه قندة عجين.

*****

كرر الديك فعلته في مكان آخر --

نادى بين جمع غفير من الجالسين على الرصيف:...

- من يريد قندة عجين !من يريد قندة عجين....
- الساذج (2) : أنا أريد قندة عجين.

أعطاه قندة العجين، رجع بها مسرورا إلى البيت.

في اليوم التالي جاءه الديك طارقا باب بيته، مطالبا بقندة العجين قائلا له:..

- يوم أمس أمنتك على قندة العجين، أرجو ان تعيدها إلي.
- لكنك وهبتها إليَّ وأنا أكلتها.
- بل أني استأمنتك عليها، فلو خبزتها وبعتها لشريت بثمنها حاجة تنفعني. فأن لم تعيدها إليَّ سأشكيك إلى القاضي.

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه:..

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين – قندة عجين -- صفطة رغيف. أي (صف رغيف)

قال القاضي للمغفل(2): أعطيه صف رغيف وإلا تدخل السجن.

رضخ لأمره، أعطاه صف رغيف....

*****

كرر الديك فعلته في موقع جديد لم يطرقه من قبل، وجد أنها طريقة مربحة، لذا صار يستلذ بمردودها.

صار يعلن بين الملأ: من يريد صفطة رغيف ؟ من يريد صفطة رغيف ؟
الساذج(3): أنا أريدها.
أعطاه صف رغيف وكل ذهب لبيته.
في اليوم التالي طرق الديك باب بيته مطالبا إياه بصف الرغيف، قائلا له:...
- يوم أمس أمنتك على صفطة رغيف، اليوم أني بحاجة إليها، أعد لي صفطة الرغيف التي استأمنتك عليها.
- لكنك وهبتها إليَّ، وأني أكلتها.
- لم أهبها لك، بل استأمنتك عليها، لو تصدقتُ بها أو بعتها في حي الأغنياء لشريت بقيمتها خروفا. إن لم تعدها ليَّ أشكيك إلى القاضي .
ذهب الديك للقاضي يشكيه:...
- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين-- قندة عجين صفطة رغيف – صفطة رغيف -- جلب الخرفان.
قال القاضي: أعطيه خروفا لأنك خنت الامانة، وإلا تدخل السجن.
أخذ الديك منه خروفا.
*****
كرر الديك فعلته في مكان جديد:...
- من يريد الخروف ؟ من يريد الخروف؟
الساذج 4: .. أنا أريده.
اعطاه الخروف، ذبحه، باع الجلد والصوف والكرعان، باع بعض لحمه وترك جزءا منه للبيت.
في اليوم التالي جاءه الديك مطالبا بالخروف!!قائلا:...
- يوم أمس أمنتك على الخروف، أرجو أن تعيده إليَّ.

- لكنك وهبت الخروف إليَّ، فذبحته وأكلت لحمه!
- لم أهبك الخروف؛ بل استأمنتك عليه، هو كل ما أملك، فلو ذبحته وبعت لحمه وجلده وصوفه بثمنه استطيع أن أتزوج!، أن لم تعيده إليَّ سأشكيك للقاضي.

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه قائلا:..

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين – قندة عجين صفطة رغيف – صفطة رغيف جلب الخرفان – جلب الخرفان جذب النسوان.

قال القاضي: أعطيه بدل الحروف امرأة! وإلا ستسجن!!

أعطاه عروسة جميلة.

أخذ الديك عروسته التي جاهد من أجلها بالمكر والخداع، حتى وصل غايته، مستغلا رجاحة عقله بين السذج– معتمدا على فكرة (الغاية تبرر الوسيلة).

غايته قداس حياته، أنها جوهرة، تستحق المجازفة والحيل، فمن لا شيء تمكن من ان يرفد حياته بسعادة فيها كل شيء، مستغلا بساطة وسذاجة بعض البشر.

الحكمة؛ يستطيع الفرد أن يصل لمبتغاه بتشغيل عقله، عليه أن يعمل في وسط مناسب، دون التجني واستغلال الآخرين كالديك.

نعيب زماننا والعيب فينا - ترانا نلام على ما فينا
من يقنع الديك بحماقته - ومن يمنع ثعلب يقاضينا

---

* (من الموروث الشعبي – من حكايات أبي رحمة الله عليه)

سر السعادة

يحكي أن تاجرا غنيا كان قد جاور فقيرا في السكن، بحيث من إطلالة بيته العالية كان يمكنه معرفة أخبار وتفاصيل حياة الفقير.

كان هذا التاجر مشغولا بتجارته، يكاد يتاجر بكل شيء من مواد غذائية وتنظيفية وأجهزة منزلية وكهربائية... الخ، لا تسعفه أوقاته إلى الراحة، كان يستعين بمساعدين كثر لتسيير أمور تجارته العريضة، لذا دائما ما تجده مشغول البال في حساباته ورحلاته بين المدن، فالتجارة أخذت جل وقته، أنهكته، فلم يجد وقتا إضافيا يصرفه على زوجته وأطفاله، إلا ما ندر.

ذلك ما كان يشغل فكر الزوجة، أشعرها بالوحدة والروتين والملل وفقدان الألفة والعاطفة التي هي بحاجة لها كامرأة.

كان التاجر المهووس بتجارته، يصعب عليه تغيير نمط حياته، طالما تلك الأعمال التجارية تدر عليه أموالا تغنيه وتنسيه هموم الدنيا، بالإضافة إلى أنها تعلي من شأنه وقدره بين رجال الدولة والرعية، لذا كان يحسب للزمن بالدقة التي ترفع من قدره وتزيد من غناه وحاجة الآخرين له..

هناك عقدة في ذهن كل غني، أنه لا يفكر بذاته، لذا تجده يسعى خلف غناه على حساب سعادته واستقرار بيته، يسعى خلف غناه على حساب راحته وصحته. تلك هي صفة عامة تجمع الاغنياء قاطبة، وأنا أظن لو أي تاجر غير من نمط تفكيره قدر شعرة؛ فأنه سيصبح حاله حال الحطاب الذي يجاوره.

على كلا أصبح عمله يضر بعلاقته بأسرته، لفقدانها الالفة التي تشد من أزر العائلة، تلك الحالة هجست بها الزوجة في

أول زواجها، غير أنها مع مرور الأيام صارت تشعر بانكسار وملل في حياتها كأنثى، صارت تهجس بفقدانها جاذبية أنوثتها، أهملت شكلها واناقتها، وكأنَّ شيئا ما قد كسر مرآة ألقها، افقدها إحساسها بحياتها، ما جعل مزاجها وعلاقتها تتعكر مع زوجها الذي دائما ما يأتي متأخرا إلى البيت.
أضحت العلاقة بينهما لا ترتقي درجة الرضا والسعادة، كأنَّ المادة بقوتها أرهقت رهافة العاطفة والعشرة بين الزوجين.
لذا كان الملل قد تسلل لمشاعر الزوجة، جعل مزاجها المتقلب يتصف بالعصبية الزائدة، صار ذلك الهاجس يؤثر سلبا على سلوك الأولاد وعمل الزوج. بل صارت تفتعل المشاكل والعقد داخل البيت. أدرك التاجر بأن سلوك زوجته سلوكا عبثيا، غير منطقي، أثر على القه في السوق وبهجته في البيت. لابد من سبب!!
****

فيما كان جارهم الفقير يعمل حطابا، كان يعمل في الأسبوع ليومين، يوم يذهب للبراري ليحطب، ويوم يجمع ما حطب ليبيعه، وبذلك يعيش عيش الكفاف والرضا.
كان يجد فسحة من الوقت يستمتع بها مع العائلة، يشعر بفأسه السليط يعينه على الجلد، يعضده، يتكلم معه، يوصف له صيغ الحياة الجميلة الهانئة. أرتقت محبته لعمله لدرجة التخاطر الذهني والروحي بينه وبين الفأس، وجد به سعادة تجاوزت عقد الحياة الروتينية وأزماته المادية.. لذا كان يهتم بعائلته مثلما كان يهتم بفأسه.
العمل الذي يكمن في أساسه شيء من الجهد والمشقة، تكمن فيه المتعة والحيوية، لذا تجد متفاني في عمله، يتبع رزقه، فهو مصدرا راحته وحافزا لتجديد طاقته، منه يستمد قوة عضلاته ونشاطه.. لذا كان الحطاب يشعر ببنية جسدية قوية

وبصحة سليمة، فالعمل اليدوي يجلي البؤس والخمول عن النفس والجسد، يحمي البدن من الانحلال والتهكم.
كان يعود إلى البيت بتلك الروحية المرحة، يداعب أطفاله وزوجته بحيوية، يتنزه معهم، يمرح معهم بأريحية، يسير حياته بشكل ديناميكي مجدول مع عجلة الزمن والحاجة النفسية، ذلك ما جعل زوجة الغني تشعر بالغيرة والحسد من قوة العلاقة والصلابة بين الفقير وزوجته.
كما أن الناس بحاجة دائمة إلى الحطب، تستخدمه في تركيب غذائها وتسخين مياهها، وفي تدفئة الأجواء في الايام الباردة، وتجهيز تنانير الخبز وفي التركيب والإنارة الليلية، لذا كانت الناس لا تستغني عن الحطب...
في المقابل كان الرجل الثري مشغولا بزيادة ثروته، فلا يجد قدرٍ كافٍ من الوقت لجلي صدأ العلاقة بينه وبين زوجته، لم يراعي الأسرة كما يجب من الناحية النفسية، لم يجد متسعا للتنزه معهم كما يفعل جاره الحطاب، ليغير من شكل الروتين الكابت على أجواء البيت. أحيانا تمر الأسابيع والايام وهو فاقدا للحظات الأنس البهيجة التي تشعره بمحيطه العائلي، مفتقدا الألفة وراحة البال والسكينة، كحال زوجته الآيبة في خضم تفكيرها السلبي..
فيما كان جاره الفقير يتصرف بمزاجية مع الزمن عكس التاجر تماما، لا يهتم للغد وثقله وهمه، ولا لجيبه وتضمينه، يستغل اللحظة باللحظة في إسعاد أسرته، يوفر وقتا كافيا للاجتماع بهم والتنزه معهم، يهتم بأصغر أمورهم واحتياجاتهم الحياتية، مستقيما، سويا، زاهدا، قنوعا بما يجّدُ عليه عمله.
تلك المقارنة أودت بزوجة الثري إلى أن تشعر بنار الغيرة الصفراء من زوجة الفقير، خاصة أنها التمست تلك السعادة الشفيفة التي تموه في محيط بيت الفقير من خلال الألفة الدائمة والبسمة الرائجة على الوجوه، والهيصة الدائرة في البيت،

فهي لم تسمع مشاجرة في بيت الفقير، مثلما تحدث في بيتها كل يوم.
كانت قد راقبت بيت الفقير على مدى أشهر، فلم تسجل أية حالة سلبية تعيق قدرية السعادة المبثوثة في أرجاء البيت.. هجست بهم مقتنعين بحظهم، راضين كل الرضا بالقسمة المكتوبة..
في مراقبتها لهذه العائلة وجدت في نفسها غصة من تلك العلاقة الحميمية، فعلى الرغم من ثراء زوجها إلا أنها لا تلتمس سعادة داخل بيتها، على الرغم من توفر كافة مستلزماتها الحياتية والمادية والمعنوية إلا أنها لم تجد قناعة كافية في عيشها، مما حز في نفسها معرفة سر تلك الحالة المتناقضة..
تلك الحالة المرضية من الحسد جعلتها تشكي زوجها، جعلتها تحتقر فتور العلاقة بينهما، حتى كادت أن تنحو بذاتها لوهدة اليأس والانحراف، ذلك ما بطن فكرها به من غراء الهجر والخيانة، فلولا مخافة الله لانحرفت وتاهت في المحاذير والموبقات، لذا فضلت مناقشة زوجها على رواء لوضع حلولا لتلك العقد ومشاكلها، قبل أن يجرفها سيل الندم.
قررت أن تتحدث بصراحه تامة مع زوجها، وإلا تلك الحالة لا تطاق؛ فقالت له:..

- يا زوجي العزيز إلا ترى العقد تتفاقم بيننا، إلا تشعر بذاتك مقصرة تجاهنا، إلا ترى بأننا لا نرتبط بعلاقة حميمية، ألا يحز ذلك بنفسك؟ دعنا نحل مشاكلنا قبل أن تودي تلك المشاكل بعلاقتنا. أني من جهتي لا أحسبك سوى كأثاث البيت، بل أني أعيش مع الأثاث أكثر مما أعيش معك؛ حتى قرفت المعيشة ذاتها، لا أهجس بك مهتما سوى بالأموال التي جلبت علينا الأمراض والعلل. إني أود أن أستطلعك على ما يجري في بيت جارنا لتتعلم منه، لتأخذ

العبرة منه حتى لو كان أقل شأنا منك. دعنا نحل مشاكلنا لنحدد ما ينقصنا..

- ماذا ينقصك يا حبيبتي؟
- ينقصني وجودك بيننا، هل تستطيع أن تقول لي ماذا تنفعنا الأموال ونحن لا نشعر بطعم السعادة والهناء؟ حتى اللقمة التي نأكلها أهجس بها ثقيلة، مسمومة، كأن الحسد مس جلودنا ودخل في طعامنا وملبسنا كالبكتيريا. الوحدة تحيط بنا، صرت أهرش بجسدي من الحك والتفكير، نكاد لا نلتقي في الفراش إلا في مناسبات كالأعياد، أولادك بحاجة لرعاية، أنا أحتاجك كزوجة. بينما جارنا يكاد يشحت من الفقر المدقع ومع ذلك السعادة تملأ بيته.

تعال راقب معي حياتهم، أنظر لحجم السعادة المبثوثة في البيت، انظر للألفة الحميمية. منذ سنتين لم أسمع لهم صوت ناشز في البيت، لم تشتكي الزوجة من زوجها، حياتهم سلسة، بسيطة، سعيدة، تكتنفها الطرافة والنكتة والضحكة، يكفينا نحن الذين نملك كل شيء والعقد تحلق اعناقنا؛ حتى أني نسيت شكل الابتسامة وألوان الألبسة...

كان زوجها الغني يتمتع بذكاء منقطع النظير وإلا ما كان يكون متميزا عن أقرانه في الثراء والفطنة، بات يستطلع مع زوجته حالة الفقير ويهز رأسه.. صار يعتذر لزوجته ووعدها أن يتفرغ لها ولأولاده، أن يخصص لهم وقتاً يقضيه بين حنانيها، أن يضع جدولا للمتعة والفسح....

في صباح اليوم التالي أرسل أحد عماله إلى جاره الفقير يدعوه ليناقشه في أمر يخصه.. عندما التقاه استقبله التاجر استقبال الجار لجاره، أخذه بالأحضان، معرضا عليه كرمه قائلا له:-

- أنت جاري ويؤسفني أرى وضعك المادي وضيع ومزي، أود مساعدتك لترتقي بشأنك وشأن العائلة، وأني أجد

لـديك الوقـت الكـافي لتعمـل معـي وتشـاركني بعـض أمـور التجـارة، ولا ضـير أن تبقـى علـى عملـك حطابـا فـي أوقـات فراغك وبذلك يمكنك جني أموالا كثيرة من عملك معي.

- حقـا مـا تقـول! أنـي سـعيد بعرضـك، وأنـت تـرى أمـور الحيـاة أضـحت تميـل إلـى العقـد مـع كبـر الأولاد، سـأكون حاضـرا تحت أمرك متى شئت.
- لا عليـك.. مـا رأيـك إذا مـا أعطيتـك بعـض المـال لتبـدأ تجـارة صـغيرة تضـيفها لتجـارتي، يمكنـك أن تقـوم بشـراء البـيض مـن القـرى والأريـاف المجـاورة وتجمعهـا فـي دكـاني، فأنـا أبيـع جـزء منهـا وأنـت تبيـع الجـزء الآخـر بلفافك علـى البيـوت والحـارات، تعـرض علـيهم البـيض بسـعر أقـل مـن سـعر الـذي أبيعـه فـي دكـاني، وبـذلك ستشـتري النـاس منـك البـيض، ومـا أن تنهـي بضـاعتك حتـى تأخـذ مـا تبقـى عنـدي مـن بـيض لتبيعـه، بـذلك نتقاسـم الـوارد مناصـفة معـا. بتلـك الطريقـة تـريح بالـك وبـال الأسـرة، تطعـم زوجتـك وأطفالـك، تلبسـهم أشـيك الملابـس، فـي الوقـت ذاتـه تغتنـي ويكبر شأنك.

لقـد وجـد الفقيـر عرضـا مغريـا مـن جـاره، أنهـا فرصـة لتغييـر وضـعه المـزري الشـاق، فرصـة تبـدل نمـط حياتـه وعيشـه، ليعيش حياة كريمة يشعر بقيمتها.

وبـذلك صـار يعمـل ويجـد ويجتهـد. يخـرج مـع خيـوط الفجـر للعمـل ولا يعـود حتـى تغـرب الشـمس، دائـرا فـي القـرى والأريـاف خلـف غايتـه، طائفـا الأزقـة والبيوتـات ليجمـع منهـا البـيض ويبيعهـا علـى بيوتـات المدينـة، ولكثـرة مـا فـاض بيـده الـرزق؛ صـار لا يسـتكين، انشـغل بنغمـة حسـاب الأمـوال. بـذلك لـم يجـد وقـت فـراغٍ كـافٍ يجـالس بـه زوجتـه وأولاده، تـرك النـزه ونسـي اللعـب والمـرح، صـار لا يعـود للبيـت إلا متعبـا، منهكـا،

لـيس لديـه مزاجـا للمغازلـة والملاطفـة، ولـمْ يجـد وقتـا كافيـا للنـوم والراحة..
يـوم بعـد يـوم باتـت المعاشـرة بـين الـزوجين تقـل وتنـدر، أنشـغل فـي أوقـات فراغـه فـي عـد البـيض وتصـنيفه وتحديـد أسـعاره ومكاسبه، وإلى ذلك من هذا القبيل دون ان يستكين للراحة..
بعـد شـهر مـن العمـل سـمعت زوجـة الغنـي أول مشـاجرة حقيقيـة بـين الفقيـر وزوجتـه، حينهـا طـرأت علـى وجههـا ابتسـامة عجـب، لـيس شـماتا أنمـا اسـتغرابا! حينهـا تقـرب الثـري مـن زوجتـه هامسا في أذنها قائلا لها:..

- هـل عرفـت سـر مشـاجرتهم؟ حـين يتبـع المـؤمن الشـيطان تهـرب منـه الملائكـة.. أنظـري إلـى المسـكين! أنـه مشـغول فـي عـد البـيض ومـا جنـى منـه، باتـت الأمـوال تجـري بـين يديـه فنسـى زوجتـه وأولاده وسـعادته، أنظـري إلـى بـؤس زوجتـه بـتمعن، يكـاد الحـزن يتقطـر مـن جبينهـا، وتكـاد الكآبـة تنـدلق مـن وجههـا، اختنقـت بـدخان المـال الـذي صـار بـين يـدي زوجهـا.. أصـبح كـلا منهمـا يعـيش فـي واد، هـو يبحث عن الغنى، وهي تفكر في غرائزها.
- والله صـدقت، المـال تلاعـب بالأسـرة، لابـد فـي المسـألة مـن أنَّ.
- الأنَّ في ذلك هي؛ شيطانه غلب إيمانه.
- ماذا تقصد؟
- أقصـد هـذه هـي حالـة الـدنيا، تَبْـيَضْ مـع الحطـب وتَسّـوَدْ مـع البيض..

حسن كاروب *

لم يكن حسن كاروب ينتظر رزقا إضافيا يُدر عليه ليزداد قناعة في الحياة، فهو راض بقسمته، شاكر نعمته، مهووسا بأرضه، صبورا على رزقه، طالما يحرث ارضه، فلا يرتجي سوى عطفة السماء أن ترفد تربته بوافر المطر. كل شيء عنده محسوب بقدر، وتلك هي جوهر قناعته.

لم يكترث للظرف وإرهاصاته رغم هوانه وكبر سنه، ففي كل سنة يزرع أرضه بشتى المحاصيل على مدار السنة، ثم يتأمل أن تدر عليه خيرها بهداوة. ذلك هو ديدنه عبر عمره المنصرم.

أحيانا يعترض زمن الشخص انحراف مفاجئ أو مَطب يغير اتجاهه ومسار حياته، أما ان ترفع من شأنه أو تضع في ذيل الركب، وما عليه سوى أن يواكب قدره مجبرا.

كانت الصدفة قد أولدت منعطفا غريبا في حياته، أجبرته على تقبل الحالة دون أن يتأملها، حلت عليه كالصاعقة، هيجتْ نواميس فكره، فجرت الرزق بين يديه كينبوع ماء على حين غفلة، أزاحت عقد الحياة من طريقه. تبدل حاله، أملا أجواء حسه راحة بال وسعادة لم يتوقعها قط.

تلك الصدفة لعبت دورا رئيسيا في تغيير نمط معيشته، غيرت منهج حياته وتراكيب حلقاتها، بات يتنفس الصعداء، انحرفت عجلة الزمن عن أصل اتجاهها بـ 180 درجة، فارتدى حلة جديدة صار يحسد ذاته عليها.

كل شيء من حوله بات ينطق بالعجب وعدم المفهومية، فالسعادة التي كان يشعر بها فيما سبق؛ لم تكن سوى تعاسة خيلت إليه سعادة، الوضع الذي كان يرتعد منه ويشكوه؛ صار بقدرة قادر ومضة سعد تشع نورا في رواق صبره. انقلبت آية حياته رأس على عقب، كأنَّه ركب مركب القدر، فتخطى لعنات الحياة بثوبه الجديد الفضفاض، قدر لم يتوقعه في أبسط أحلامه الساذجة..

******

بدأت قصة الفلاح حسن كاروب مع الذئب؛ حينما هم الذئب مهاجمة بقرته الحلوب، لكنه جبن أمام تأهب حسن له، وإذ به يرتبك بلحظة ضعف فيضرط أمام حسن كاروب.

هذا ما دعا الذئب يخجل خجلا مهينا أمام حسن، أصفر لونه، تراخت أطرافه، خارتْ عزيمته، لم يجد مناصا من الفشل، أما الهرب، أو المواجهة القسرية الغير محمودة، في ظل تأهب حسن له.

عقدة أرتمت في طريقه على حين غفلة لم يجد حلا لها، كبلتْ ساقيه، لوتْ فكره، أفقدته إرادته وعزيمته، شعر بمهانة لحقت به، وعار لصق به.

لابد من حل للعقدة المبرمة على رقبته، أما مواجهة الفلاح حسن، أو هجرة المقاطعة! أو الاتفاق على صيغة ترضي الطرفين.

هذا ما جال في خاطر الذئب؛ ففي قرارة نفسه إذا ما أراد هجر المقاطعة، أنما يهجرها كي لا يكون في موضع سخرية أمام شلة حيوانات المقاطعة..

في حالة الهجر؛ قد يؤول حسن إلى إفشاء سره إذا ما سؤل عن سر اختفائه، حينها سيعرف بقصته القاصي والداني، ثم هذه المقاطعة غنية بخيراتها، وهي مسقط راسه ومرتع طفولته وخزين ذكرياته.

إذا هناك حواجز تاريخية وطبيعية تمنعه من هجرها، فهي تعتبر كنز لا يمكن التفريط بها، كما أنه سيفتقد بريق زهوه في أعين غرمائه وأصدقائه مع مرور الزمن، فعزته وكرامته تمنعانه من التخفي والهرب.

وفي حالة مهاجمة حسن، قد لا يتمكن منه فيخسر حياته. بين شد وجذب، أسعفته فكرة الاتفاق مع حسن على كتم خبر ضرطته، مقابل أن يجلب له كل صباح خروف يرميه أمام باب بيته، على أن لا يصرح به لزوجته والشيطان.

الاتفاق هو أسلم الطرق توصله لمبتغاه، ويحافظ على بأسه كياسته بين أعدائه ورفاقه. أن دفن سره في ذهن شخص أسلم له من عقد لا تحمد عقباها، مع حيص المراقبة المشددة عليه. كما أن الانتقام من حسن قد يجعله عرضة للملاحقة من قبل ذويه طوال حياته.

حينها قال الذئب لحسن:.....

- لقد سمعتني أضرط أمامك، وأني شاكرا لك توريتك الحدث، وما عليك سوى كتمان السر عن أقرب الناس لك، مقابل صمتك سأعوضك بخروف كل صباح، وفي حالة إفشاءك السر سأنتقم منك.

أتفقا على تلك الخاصية، خاصة أنه لم يجد مناصا للرفض والتملص من الذئب. بصراحة وجد نفسه داخل نفق مظلم

فرض عليه، الاتفاق أشبه بوحل فرية غارت به قدماه، وكان لابد من اجتياز المفازة بينه وبين الذئب بذكاء، لينجو من غدره ومشاكله، ثم أنه سوف لن يخسر شيء قط، فرصة سنحت أمامه عليه استغلالها ليعيد لنفسه التوازن.

صار يشكر ربه على رزقه، وهو غير مصدق تبدل حالته نحو الأفضل، الأمر بالنسبة له لا يعدو سوى تفاهة، لكنه من وجهة نظر الذئب عزة وكرامة ليحافظ على هيبته، شخصيته؛ أهم ما يملك في الحياة، ولن يسمح بخدش جلدها.

*****

هكذا صار يجلب الذئب خروفا لحسن مع آذان فجر كل صباح، وهكذا صار حسن وأولاده وزوجته يأكلون هنيا مريا دون الاهتمام بظرف الغد.... مع مرور الأيام وتوالي الخِراف، صارت المسألة تحتاج إلى تفسير معقول للزوجته، تلك التي ركبت دماغاها وأصرت على معرفة مصدر الخراف، لتعيش بطمأنينة وراحة بال. حاصرها الشك حتى أطبق على ذهنها، باتت تسال زوجها المسكين دون أن يستطيع اطلاعها على سر الخراف...

- من أين لك هذا؟...

ذلك السؤال الذي أرهق ذهنه محاولا تجنبه، وهو غير مصدق ما حصل له رغد وسعة في الرزق، أضحى يتهرب من سؤالها، يجيبها بإجابات مربكة غير مقنعة؛ حتى صارت تجد في إجاباته استهزاء واضح بشخصها وقدرها. كان يقول لها:....

- كُلي يا بنت الناس، الله يرزق من يشاء بغير حساب، أنت تعرفين زوجك حق المعرفة، لا أحتمل السحت ولا الحرام، أنه رزق من الله وقدر مكتوب .

ود بإجاباته إرضاء الطرفين، فهو لا يريد أن يبغض الذئب الذي يترصد همساته، ولا يريد إزعال زوجته، ثم أنه لا يود أن يغلق باب رزق الذي فتح على مصراعيه، في الوقت الذي به هو في أوج الحاجة لديمومة هذا الرزق

من جانبها ملّتْ سماع أسطوانته الفارغة دون أن يوضح لها سر الخراف، دون أن يقنعها ليشفي غليلها وفضولها.

أحيانا البشر يحسد نفسه، فلا يصبر على أمر سعادته؛ حتى تصيبه آفة النقمة، فيجلب النحس والتعاسة لنفسه بنفسه. هكذا اصبح ديدن زوجته التي ابتليت بآفة الفضول، ولن يهدأ لها بال حتى تجف عروق النعم من البيت. تلك الأفعى المختفية في أحراش ذهنها؛ سممت فكرها وبدنها، شلت قدراتها، أوهنت قواها، حولت مرافئ البيت السعيد إلى جحيم ملتهب، إلى كآبة بين جدران الصمت المشاع.

بدأ دخان التعاسة يرتفع في الأفق، أضحت خلافها مع زوجها مرئيٌ للجار، جعلت الزوج يخنس في زاوية اليأس. لم يهدأ لها بال، غدت العقدة جمرة تكوي صبرها، تأجج شكوكها بعفة زوجها. باتت تبحث في حقل العِشرة الزوجية عن فجوات منسية لتعيد إليها بريقها، اوهامها دفعتها إلى اتهامه بالخيانة، وإلا من أين يحصل على هذه الخراف؟ وهو لا يملك في جعبته ما يسد رمق فقره.

كـأنَّ تلـك الخـراف حلـت كلعنـة علـى سـعادة البيـت، فلـم يشـغل بالهـا إلا سـيرتها. مـوج أسـود راغ فـي ذهنهـا؛ اغشـاها بالأوهـام، أصـبحت أمكانيـة حـل المعضـلة مـن سـابع المسـتحيلات بعـد أن شسعت الفجوة بين الزوجين ووصلت إلى فرض الطلاق.

تلـك الريفيـة لا ترضـى أن يعكـر مزاجهـا لـون معـتم، لا ترضـى عـن نفسـها أكـل السـحت، تربـت علـى الصـدق والعفـة، إيمانها جاء من حفظها للأحاديث:.....

(إنـه لا يربـو لحـم نبـت مـن سـحت إلا كانـت النـار أولـى بـه) رواه الترمـذي- (ليـأتينَّ علـى النـاس زمـانٌ لا يُبـالي المـرءُ بمـا أخَـذَ المـالَ أمِـن الحـلال أم مِـنَ الحـرام) (رواه البخـاري). " اذا وقعـت لقمـة حـرام فـي جـوف العبـد لعنـه كـل ملـك فـي السـماوات والارض" ....

وهـذا الشـرف لا يمكـن أن تنزعـه عـن ذاتهـا فـي أسـوأ الظـروف، أنهـا بنـت ريـف، ارتبطـت جـذورها بـالعزة والأصـالة، فـي ذات الوقـت لا تريـد أن تـردم جـدار العشـرة مـع زوجهـا. مـا أزعجهـا؛ هـو تكـتم زوجهـا.. تـرى مـاذا يخفـي مـن حقيقـة عنهـا؟.... ذلـك مـا تبحـث عنـه. ذلـك مـا كـان يؤرقهـا ويرهقهـا، ويشـغل تفكيرهـا باستمرار.

أمـا المسـكين حسـن، الـذي صـار يفتقـد القـدرة علـى الـتحكم بـأمور نفسـه وإدارة البيـت، كأنـه قـد دحرجتـه الظـروف بـين كتـل العقـد، فصـار بـين فكـي كماشـة الـذئب والزوجـة. لـن يسـتطع أفشـاء السـر لزوجتـه، خوفـا مـن انتقـام الـذئب، ولـن يسـتطيع تحمـل مـرارة العشـرة مـع زوجـة تشـك بزوجهـا، لا اسـتقرار فـي الـذهن، ولا سكينة في البيت الذي تصدعت جدرانه.

عواصف الخلاف لم تهدأ، ولم يعد يطيق سخرية الزمن الأهوج وإرهاصات الزوجة، خارت قواه، أفتقدَ السعادة، وصل به الحال إلى نبذ ألفة الفراش في الوقت الذي به خف نبض القلب وكلَّ البدن، تكاد لا تسعفه الحياة على تجاوز المسافات القادمة. الحياة ليست نزهة، أنها عمل وعطاء وشقاء ومحبة، وضحك، ولعب، ولهو، وراحة بال وتبادل عاطفة، وأمور أخرى لا تعد ولا تحصى أصبح يفتقدها في بيته.

ترنح فكره بين لكنة سعادة أمس، ولهجة حاضره التعيس، أنه مصدر كل ذلك، فهو يمسك برأس الخيط، يعرف قوته وامتداده. أنها معادلة الحياة؛ فيها الربح والخسارة، الشيء بالشيء يذكر، وكل شيء له ثمنا مدفوعا، الجهد مقابل السعادة، إفشاء السر مقابل رضا الزوجة.

إذا لابد من أفشاء السر للزوجة لتعود المياه لمجاريها، وإلا ستكون النتائج وبالاً عليه وعلى الأسرة.

لكن الذئب لم يترك حسن على سجيته، فله عيونا و مجسات تحيط به وبأركان البيت، لقد وضع حسن تحت مراقبة مجهرية؛ حتى وهو راقدا في فرشته، فلن يتهاون على حساب كرامته وشخصيته.

لذا قال حسن لزوجته وهو في مضجعه:.....

- يا امرأة كفي عن شكوكك وسأفشيك سر الخراف على أن تكتمي الخبر في نفسك تجنبا لانتقام الذئب. عليك أن تثقي بزوجك، أن تساعديه لا أن تحملي عليه، مثلما يؤلمك الحال فهو يؤلمني، فما بيننا من عمر هو أكبر من كل أوهامك

التـي قضـت علـى سـعادة البيـت، وربمـا ستقضـي علـى الـرزق الجاري.

- يـا زوجتـي العزيـزة! السـر هـو أن الـذئب ضـرط أمـامي، فطلـب منـي كتمـان السـر مقابـل أن يجلـب لنـا كـل صـباح خروف من الخرفان. وما عليك سوى كتمان السر.

***

فـي صـباح اليـوم التـالي وجـد حسـن الـذئب واقـف أمـام الـدار دون أن يجلـب لـه خروفـا!... أصـابه وجـل، رأى فـي ملامحـه نـزف الشر، تجبب منه الحذر، أستعد لمواجهته...حينها سأله حسن:..

- أراك لست على ما يرام، ما بك اليوم؟

قال الذئب: ...

- لقد أخلفت أتفاقنا بإفشائك السر لزوجتك.

قال له حسن كاروب مازحا:....

- مهـلا .. مهـلا يـا صـديقي العزيـز... لا تسـتعجل الأمـور، هنـاك أمـر هـام يخصـك، كأنـك لا تعلـم بمـا يحـاك ضـدك فـي قصـر الملك؟
- أمر هام – ما هو؟
- أنت مراقب من قبل حاشية الملك، أنت مطلوب له.
- أفصح ! ماذا تقصد ؟
- أتـرى تلـك الغبـرة التـي علـت الأفـق! وتلـك العجـة التـي غلـتْ الطريق؟.
- نعم أراها --- ما تلك يا حسن؟
- أنـه جـيش الملـك، يبحثـون عـن كبـد الـذئب ليجعلـوه دواءً لعـين الملك.

حينها أرتعد الذئب توجس خيفة، فأستنجد بحسن قائلا له.

- سامحني، سأكون في خدمتك وطاعتك طول عمري، فقط أرجو منك أنْ تخبأني في بيتك، سأعوضك عن إحسانك.

جلب حسن كيسا كبيرا- شوال أو (كونية) - وقال له:..

- أدخل هنا سوف لن يراك أحدا، ثق بي، سيعتبرونك من أثاث المنزل ومؤنه.

دخل الذئب الخائف الشوال الكبير، أحكم حسن سداد فتحته، ثم جلب هراوة غليظة يحتفظ بها لوقت اللزوم، صار يضرب الذئب ضربا مبرحا حتى فاضت روحه، بذلك تمكن من أن ينقذ نفسه من شره ويغلق باب رزقه.

عاد حسن لزوجته غاضبا وقال لها:..

- لم تصبري على الرزق، فضولك الذي لا يكل ولا ينتهي اعماك، بئس التفكير السلبي وبئس العناد، كاد الذئب أن يفتك بنا لولا نباهتي، فرضتِ تعاسة على البيت، صبغتِ كل شيء جميل بلون قاتم، ذبحتِ سنين العشرةِ بالشك، لم تصبري على رغدِ العيش، لم تراعي عمري وانكسار ظهري في العمل، تلك القشة التي بحثتِ عنها قصمت ظهر البعير. الذئب عرف بإفشائي السر لك، تربصني أمام الدار، كاد يقتلني لولا نباهتي وحكمتي. يجب أن تدركي أن بعض الظن أثم.

* (هذه القصة من الموروث، كان قد حكاها لنا المرحوم الوالد العزيز، طيب الله ثراه).

فروة السبع *

صادف أنَّ التقى الثعلب باللقلق على بركة ماء، ففي اللحظة التي أراد بها اللقلق أن يلتقط سمكة من البركة كان الثعلب قد اقتنصها من أمامه، بذلك حرم اللقلق من وجبة دسمة كان يتأملها.

تلك الواقعة أغاضت اللقلق كثيرا، بحيث جعلته يبغض الثعلب ويكن له كراهية في قلبه، مما صار يفكر بمكر وخبث للإيقاع به وإيذاءه.

ذلك ما جعله يخفي غيضه داخل نفسه، فأقترب من الثعلب ممهدا له طريق الود قبل أن يفترقا من على البركة، أخبره برغبته تكوين صداقة حميمية معه، بذا وجه له دعوة لزيارته في بيته، ليقيم على شرفه مأدبة غداء تليق به....

لم يصدق الثعلب ما أبداه اللقلق من حسن نية تجاهه، لذا أبدى قبوله وتفانيه بالدعوة وأكد على حضوره بالوقت المحدد.

وفي اليوم التالي صدق الثعلب وعده، حضر لبيت اللقلق بالوقت المناسب، كما صدق اللقلق وعده بأعداد وجبة طعام على شرف ضيفه.

أنتظر الثعلب سفرة الطعام طويلا، حتى صار يشعر بجوع يهرس معدته، حينها فرش اللقلق سفرته وأعد صينته، ثم صب محتوى قدره فيها.

حينها تفاجأ الثعلب من خبث اللقلق! حيث كان محتوى الغداء عبارة عن بذور الحمص فقط!(اللبلبي) بذا تمكن اللقلق من أن

يلتقط كل الحبوب دون أن يستطع الثعلب من أن يأكل شيئا.
شعر الثعلب بإهانة وبمكيدة اللقلق، فضمر حنقه في قلبه، فوعد ذاته بأخذ الثأر منه، فطلب من اللقلق أن يشرفه في بيته ليرد إليه جميله بوليمة تليق بمكانته...
رحب بذلك اللقلق وجهز نفسه لوليمة الثعلب.
مثلما وفى الثعلب بوعده حضر اللقلق بموعده، ومثلما أنتظر الثعلب سفرة الطعام، جعل اللقلق ينتظر سفرة طعامه. حينها فرش الثعلب سفرته ثم صب محتواه في صينية كبيرة.
حين إذ دهش اللقلق من تحدي الثعلب له، حيث كان الطعام عبارة عن حساء فقط، فاستطاع الثعلب من أن يلحس المحتوى كله، فيما بقي اللقلق يعاني من جوعه.
أشتد حنق اللقلق عليه ولم ينبس بشفة، في الوقت الذي به تاهت عينه بين ثنايا رائحة الحساء والجوع الذي هرس معدته.
قال اللقلق للثعلب:...

- أتود أن أعلمك أسرار الطيران؟

استغرب الثعلب من عرض صديقه، أيمكنه ذلك؟ فكر قليلا ثم قال: لمَ لا أجرب ذلك! فسأله:...

- كيف أطير وأنا بلا أجنحة ؟؟؟
- لا عليك، أنه لأمر سهل، أنا كنت أطير بدون ريش، فقط عليك أن تصعد على ظهري، وتشاهدني كيف أحلق في الفضاء، كيف أحرك جناحيَّ بيسر، ستتعلم خلال الممارسة.

أقتنع الثعلب بوجهة نظره، في الحقيقة أنه ودَّ أن يجرب عملية الطيران لغصة في النفس، بعد أن عاش عمره يزحف على الأرض.

صعد الثعلب على ظهر اللقلق، ثم طار به، أحس الثعلب بمتعة غريبة وبخوف من الارتفاع، هجس بنشوة لم يكن يحلم بها إطلاقا، وهو معلق في الجو كباقي الطيور....فقال له اللقلق:...

- ما ذا تشعر؟
- أشعر بمتعة كبيرة وخوف من الارتفاع، لا استطيع وصف حالتي، أنها فوق الخيال، نشوة تبلور حالة الوجس في أعماقي كدخان الشفق، ينفث مع شهقة أنفاسي، في نفسي تعلم سر الطيران مثلك، كم أنا ممتن لك يا صديقي، لأنك منحتني هذه التجربة الجميلة.

هجس بخوف من الارتفاع وهو ينظر إلى الأرض، دقات قلبه بدت تخترق حواجز الصبر، في الوقت الذي كان به مستمتعا بالمناظر الساحرة التي تعتريه. فقال للقلق:...

- انا مندهشا من سحر وجمال الأرض، أهجس بذاتي ملك الكون، حرٌ، لا أحد يتحكم بي. آه كم هي رائعة الحرية يا صديقي.

ثم صعد به لارتفاع عال: ثم سأله:...

- الآن ماذا ترى؟

قال الثعلب:...

- أرى الأشجار بعدت عنا كثيرا، والناس صغرت أحجامها، والمسافة شسعت بيننا وبين الأرض.

ثم أرتفع به لارتفاع شاهق، وسأله:...

- الآن ماذا ترى؟
- أكاد لا أرى شيئا، سوى سدم معتم.

حين إذ رمى به من ذلك الارتفاع الشاهق، فسقط بسرعة الجاذبية كالشهب، متجها نحو الأرض.

حين إذ دعا الثعلب ربه أن يسقطه على فروة الراعي قائلا.

- **ربي أسقطني على فروة الراعي، كي لا تكسر ذراعي.**

وكما دعا ربه، استجاب له، فسقط على فروة الراعي، تلك التي كان قد تركها الراعي مرمية على بيدر من تبن الحصاد. سقط عليها، دون أن يصاب بضرر.

حمد ربه على سلامته من الأذى، ثم أرتدى فروة الراعي متجه لداره، غير مصدق نجاته من مكيدة اللقلق.

***

من هذه التجربة تعلم الثعلب بأن لا يثق بكائن ما ليس من جنسه، وأن لا يكون ساذجا في تعامله مع الغير، وأن لا يجرب حظه في المجالات المستحيلة.

خلال عودته لداره وهو مرهق غير مصدق نجاته من مكيدة اللقلق، واجهه الأسد (السبع)، الذي أعجب كثيرا بالفروة التي يرتديها! فسأله السبع:---

- إيها الثعلب الماكر! من أين لك هذه الفروة الجميلة؟

أرتبك الثعلب أمامه فقال:..

- نعم سيدي؛ أنا الذي صنعتها. أنها مهنتي التي ورثتها عن أبي والذي بدوره ورثها عن جدي--- فصلتها وخطها بمعاونة أهلي وأعمامي!!
- هل تستطيع أن تسدي لي خدمة، وتعمل لي واحدة مثلها؟

- بالتأكيد سيدي--- أنت لا تطلب مني، أنت تأمر وأنا أنفذ! فقط عليك أن تمهلني وقتا كافيا، وأن توفر متطلبات الفروة. أن تجلب لي في كل صباح خروف لأستطيع تنظيف الجلد ودبغه على رواق، سأجعلها فروة متميزة، تليق بك. حيث صناعتها ليست بالأمر الهين كما سأوضح لك الأمر.

أولا: أحتاج مدة شهر إلى شهرين من الزمن لتنظيف الجلد دبغه بمواد كيمياوية.

ثانيا: بعد الدباغة تحتاج شهرين لنشرها في العراء تحت أشعة الشمس لتعقيمها من الجراثيم.

ثالثا: تحتاج شهر إلى شهرين من الزمن من أجل لتليينها وتنعيمها بالزيت وماء الورد.

رابعا: تتطلب مدة شهرين لفصالها وخياطها. فالمسألة كما ترى تأخذ جلُ وقتي وجهدي وصحتي. هذا ما سأعاني منه كثيرا، وهذا يعني بأنني سوف لن استطع أن أوفر لقمة العيش الكريمة لعائلتي خلال تلك المدة، بسبب انشغالي كل الوقت في صناعة الفروة.

لذا يجدر بنا أن نراعي الحالة، وأكيد ستسامحني عن التأخير الذي حتما سيحصل، حيث أني سوف أقسم يومي مناصفة بين صناعة الفروة وتوفير لقمة العيش لعائلتي، وبذلك ستتضاعف عليك المدة. فأرجو منك الصبر، وأنْ تحتمل مشقة الانتظار، ففي نهاية المطاف ستجد فروة تليق بمكانتك وقدرك، وأنت سيدا مرموقا في الغابة.

وافق الأسد على شروط الثعلب وصار يجلب له في كل يوم خروفا، بذلك أمن الثعلب لنفسه ولعائلته الأمان والاستقرار مدة تزيد سنة وأكثر مع وافر الرزق.
خلال تلك المدة سيتكفل الأسد المخدوع بحمايتهم وتوفير رزقهم، بقيت تلك الخدعة محاكة بإمعان وحنكة وسر من اسرار الثعلب.
استمرت هذه العملية حتى كلَّ ومل الأسد من الصبر والتأني ومتابعة الصيد الذي أنهكه، كان يضطر لقطع مسافات شاسعة من أجل نيل رصا الثعلب لإكمال فروته.
أخذت صناعة الفروة وقتا أطول من المتفق عليه، ففي كل مرة يسأل عن فروته، يجيبه الثعلب بعذر يقنعه به. فيقول له:....

- لازالت تحت قيد العمل، هي بحاجة لأمور فنية، ينقصها الردن .. تحتاج لياقة كي تكتمل... تحتاج لأزرار، لروف الحواف.... الخ من كذب ملفق يخدع به الأسد.

لكنه لا بد من نهاية، وحل فاصل لمسلسل الخِداع، فأنَّ للصبر حدود لا يمكن تجاوزه استغفال الأسد. فهذا هو الأسد سيد الغابة، ملك الحيوات، فأن نفد صبره تحول لكاسر جبار، لن يرحم أحدا، لن يقف أمام شراسته شيء يمنعه من الانتقام. بعد تلك المدة أصبح الثعلب في ورطة أكيدة، أصبح في مأزق دون حل، وهو مدرك تماما بأن فترة النعم وشلت، بات يعيش في خريف اتفاقه، سيكون بمواجهة الأسد. ولن يهدأ له بال إلا برسم خدعة جديدة يغشي بها الأسد أو أن يفر من الغابة. إذا لابدّ من وضع نهاية درامية مقنعة لسيناريو خديعته.

وفي آخر مقابلة مع الأسد كان قد تلقى تهديدا قاسيا، فالمسألة لا تقبل التأجيل إطلاقا، لابد من وضع حدٍ فاصلٍ لهذه المهزلة كما وصفها الأسد بعد معاناة انتظار طويلة. حينها كان قد طلب الثعلب من الأسد التريث لصباح اليوم التالي، وهي آخر مهلة سمح بها الأسد. حيث قال الثعلب:..

- أمهلني لصباح الغد يا سيدي، فأنها جاهزة سوى من دبس بعض الأزرار والرتوش اللازمة لها، فلن أغفى الليلة إلا وهي جاهزة في صباح الغد. أطمأن سوف أكملها هذه الليلة، سأجعل كل عائلتي أن تقوم بعمل استثنائي منقطع النظير حتى تكتمل فروتك، غدا سترتديها وتتأنق بها، صبرت كثيرا ومن الأولى أن تصبر لصباح الغد.

رضخ الأسد لطلب الثعلب، فما في اليد من حيلة، ولا من حل غير الصبر، فلا ضير أن يصبر ليلة أخرى.

بعد أن وصلت الأمور لمسارات مغلقة، لابد من أن يتدارك الثعلب الموقف قبل أن يقع الفأس في الرأس وتحل المصيبة عليه وعلى عائلته، فالأسد لن يتركه طليقا أبدا، أصبحت اللقمة الهنية مرة في فم الثعلب. فهو ليس أسدا، ولا نمرا، ليستطيع أن يصمد أمامه ويفرض هيبته.

لذا جمع كل افرد عائلته وعشيرته ووضعهم أمام الأمر الواقع، ليتدابروا الأمر، وليتداركوا المصيبة، قبل أن تجتاحهم جائحة الأسد صباح الغد. وبعد معاناة وإرهاصات وتجادل، تمكنوا من الوصول لفكرة لطيفة تقييهم شر الأسد (السبع).

الفكـرة هـي: أن يبتـروا أذيـالهم جميعـا، أنهـا فكـرة رائعـة سـتمنع الأسـد مـن التعـرف علـيهم، بـذلك يكونـوا قـد ضـمنوا حيـاتهم مقابـل فقدانهم أذيالهم.

لابـد مـن جـزاء جـراء المكـر، هـذه هـي سـنة الحيـاة، الجـزاء مقابـل الخداع.

تجمعـوا فـي مكـان نـائي بعيـد عـن دارهـم، ربطـوا أذيـالهم بعضـها بـبعض حتـى صـار منظـرهم أشـبه بحلقـة دائريـة مركزهـا عقـدة الأذيـال. وبحركـة سـريعة عكسـية وقويـة أشـترك بهـا الجميـع، تـم بتـر أذيـالهم مـن عقـدة المـؤخرة. بـذلك أصـبح منظـرهم غيـر مألوف تشابه به الجميع.

حـين حـلَّ الصـباح، طـرق الأسـد بـابهم يسـأل عـن فروتـه المزعومـة، حسـب أتفـاق يـوم أمـس. اسـتغرب الجميـع مـن طلبـه! عن أية فروة يتكلم؟ قال الثعلب:..

- يـا سـيدي عـن أيـة فـروة تسـأل؟ نحـن لـم يكـن بيننـا أي أتفـاق مسـبق، ولـيس لنـا أيـة معرفـة مسـبقة بـك، ولـيس لنـا فكـرة عـن صـناعة الفـروة، نحـن قـوم نـدعى ببيـت البتـران، أو عائلـة البتران، نحن حللنا هنا منتصف ليلة أمس فقط .

حـين إذ نـادى علـى زوجتـه، وأبنـه، وأبـن عمـه، و... كـل أفـراد عشيرته ..

قال له:....

- أنظر يا سيدي كلنا بتران بالوراثة.

حـين إذا أقتنـع الأسـد بتفسـيرهم ووجهـة نظـرهم المعقولـة، هـؤلاء ليسوا هم من أتفق معهم، فمن خدعوه لم يكونوا بترانا.

عـاد خائبـا مكسـور الخـاطر، يبحـث عـن غريمـه المـاكر فـي جـوف المستحيل، حينها إذ عَلِمَ بأنه كان مخدوعا طوال تلك الفترة...

فـذهبت قصـتهم مـثلا يضـرب بهـا علـى كـل مـن يحـاول أن يماطـل فـي تـأخير عمـل مـا، أو تأجيـل عمـل مـا، شـابه ذلـك:..(قصتك صارت مثل فروة السبع)

*.....

هذه القصة من موروثات المرحوم الوالد، طيب الله ثراه.

الأميرة والمؤذن *

كان يا ما كان في سالف العصر والأزمان، امرأة بيضاء رشيقة القوام، تسر الناظرين، لا يتجاوز ربيع عمرها العشرين، متزوجة من شاب ذا عفة وشهامة، لا يقل عنها جاه ولا وسامة، تسكن في دار قرب المسجد الكبير، في ضواحي مدينة بغداد الشمالية.

امرأة متدفقة حيوية وبهاء، تتأنق بلبسها كل مساء، ترتدي الفاخر من أقمشة السندس والإستبرق، مياسة، لطيفة، شفافة، تهجس برقتها كأنها مصنوعة من ورق، تداعب زوجها بود وحنان ورفق، تمرح بين الورود كـ الصبيان، سعيدة، عزيزة نفس، رشيقة البدن، كريمة، حليمة، لبقة، ذكية، لماحة، أميرة على عرش بيتها، كما هو أسمها الجليل أميرة.

لا ينقصها شيء من بهجة الحياة، سوى جلسات سمر نسائية تروض بها الذات، لترشق صبغة الحياة بنمنمة الأخبار وكركرت الطرائف وقهقهة النكات.

هذا هو طبع المرأة، مهما كبرت وعلا شأنها، مهما لمع في الأفق حظها، لابد لها من ألفة نسائية تجمعها بصديقة أو بمجموعة صديقات، تسفر لهنَّ عن ما يجيش في داخلها من عصف وإرهاصات، تسرح بشجون الحديث، تسر بما يغز انفسهن وما يخدش الحياء، فالمرأة لا تستطيع تغيير جلدها مهما علا شأنها، هكذا خلقت، وهكذا يجب أن تكون.

لابد لها من صحبة تزيح بها عن كاهلها شبح الوحدة، تتداول

معهن الاحاديث التي لا ينبغي للرجل أن يحضرها. جلسات يفرغنَّ بها مكنونهن من جلد الروتين، لتبقى أحداهن ترتع بالألق. فهيَّ جزء من فسيفساء الحياة: ناعمة، رقيقة، تحتاج للألفة والرعاية والاهتمام، تحتاج للضحكة والنكتة والتخاطر، من خلال قناطر الأفراح والأتراح تدرك ذاتها، فالشمعة تحتاج لوسط مظلم لينتشي نورها، هكذا هي المرأة تسعى خلف بلادتها لتمنح ذاتها الهدوء والسكينة، خاصة إذا ما كانت تعيش في زمن لم تجد فيه مساحة للتألق أمام عنجهية الرجل وسيطرته.

حينها كانت تنعدم المقاهي النسائية والملاهي العصرية، وأماكن الاستجمام والهيام. فالمرأة تعيش عيشة الجرذان في الغابة، لا تستطيع الخروج من البيت إلا بأذن، وأن خرجت منفردة تتعرض للتنمر والذم بفعل عقد العادات والتقاليد.

فالمرأة بطبعها أرق من الورق، وأشف من الهوى، وأنعم من فراء القطن، سلاحها الوحيد أنوثتها وسيف جمالها. فهي تهفو من همسة، وترق من لمسة، وتسهب كنسمة، يشتاق لها الزهر والحجر، كضوء الشمس وغر المطر؛ في ذات الوقت هي أحد من السيف وأشد من لسعة النار إذا ما احتدمت وغضبت. فهي محور البيت، تضفي عليه المرح متى ما فاءت، وتكلله بالحزن متى ما وصبت واعتلت، حساسة، رقيقة، سريعة التأثر، فلا غرابة أن تباهت بلبسها وزوجها وجواهرها.

تستمتع بأحاديث النساء، تتبع أخبار الزواج والطلاق، تتصف بالفضول في معرفة أصداء وأهواء الناس، شغوفة بفرض

شخصيتها في كل مجال، تبتهج حين يلتمع كيانها في العيون المحيطة بها.
إذا لابد لها من صداقة تروض بها الذات، وإلا تكون حجرة عثرة في طريق أسعاد زوجها.
***
خلال مراودتها الأسواق؛ تعرفت على جارتها أميمة، وهي امرأة لعوب تقاربها في السن، تعرف خبايا المنطقة وما يدور بها من أسرار الأمور، وما خفي تحت الجحور.
كانت أميمة تحضر جلسات سمر اسبوعية في بيت الداده أو الشيخة كما يسمونها النسوة. وهي امرأة طاعنة، تجتمع في دارها النساء، ليقضينَّ فيها جلسات سمرهن، يتعرفنَّ على حظوظهنَّ من خلال قارئة الفنجان، يستمتعنَّ في تدخين النرجيلة وارتشاف القهوة والشاي، مقابل مبالغ زهيدة تدفع للداده.
كما تحدث في الدار صفقات سمسرة سرية من اتفاق وفراق وتعارف وصحبة وزواج وطلاق وحب وغرام، والاستمتاع بالقصص الشجية، كقصص ألف ليلة وليلة، ومداولة مشاكل الناس ---- الخ من هذا القبيل.
أي تستطيع المرأة أن تعرف كل ما يحدث في البلد من خلال حضورها إلى دار الشيخة. ومن الممكن أن تتعرف المرأة على أخبار زوجها، إذا ما أرادت أن تتقصى أخباره، فالبيت هو أشبه بنادي تعارف، أو نادي اجتماعي، أو نايت كلاب. لا يوجد في بيت الداده خط أحمر لكائن من كان، الكل ممكن أن تذكر سيرته بالسلب أو بالإيجاب.

المدينة معمرة بالخضرة والبساتين، تجوبها أشجار النخيل الباسقة، تحتضن أشجارا الفواكه من الحمضيات والرمان والتين والزيتون.

كانت الناس تعتمد في تنقلاتها على الدباب برا، وعلى الكلك والإبلام نهرا، كما يعتمدون في إنارة طرقاتهم على الفوانيس والمسارج الزيتية، لتعينهم على ظلمة الليل قبل اكتشاف الكهرباء.

كان على المؤذن الصعود إلى قمة منارة المسجد كل يوم خمس مرات ليؤذن بالمصلين. وفي كل مرة يرتقي بها المؤذن منارة المسجد، كان يشبع فضوله في التركيز على بيت الحسناء (أميرة)، يطل على حسن أميرة، يتبع أخبارها وجميل لبسها، تلك التي سرقت قلبه وأسرت فكره وأعمت بصيرته.

كان يسترسل باستطلاعه طويلا، حتى تصطلي أحشائه بنار الجوى. لم يستطع مقاومة أهوائه، لم يجد حلا لذهوله وهوسه بأميرة، عانى كثيرا من ولعه بها، تكاد أطيافه لا تستكين في خواطره إلا برؤيتها، شغل ذاته بشكلها ورشاقة جسدها وأناقتها، وهي تجري كالطاووس تداعب بعلها.

أضحى لا يحتمل صبره، صار يرتقي المأذنة قبل موعد الآذان بفترة زمنية، ليتطفل على جمالها. أحيانا يتأخر عن موعد الآذان لنسيانه نفسه في خضم صراعه مع إرهاصته. أحيانا يشعر بالمأذنة تميل به ميل الغصن حين يراها كالخشف تتمختر بلباس شفاف، فيفتقد توازنه فيزعق بآذانه المقيت ليلفت نظرها وانتباهها. لكنه في الحقيقة شد أنتباه الناس إليه جميعا

إلا هيَّ، تلك الأبية التي لا يغنيها عن محبة زوجها الكون بأسره.

هذا المؤذن المراهق كان يسكن في دار قريبة من بيت الشيخة على ضفاف نهر دجلة، وهو شبه عازب بعد أن هجرته زوجته منذ أشهر لزيغ عينيه وقلبه، بعد أن لمست طيشه.

كانت أميرة قد شكت لصديقتها أميمة من شبح الوحدة الكابت على قلبها، فأشارت إليها أميمة بمرافقتها لبيت الداده، لتغيير من روتين حياتها، ولتستمتع بصداقات جديدة مع النساء، ولسماع قصص شجية حقيقية وخيالية وما يطرح في بيت الداده من أخبار البلد.

سرها اقتراح أميمة، فاستأذنت زوجها الذي لا يرفض لها طلبا إلا ما ندر. وفي أحد أيام الخميس رافقت أميمة لدار الشيخة، استأنست كثيرا في مشاركتها تلك الجلسات، بعد أن تحررت من قيد الوحدة المقيتة.

لأول مرة لمست حريتها وعرفت ما يدور حولها، باتت قريبة جدا من المجتمع، ففي كل مجتمع يوجد الصالح والطالح، فلا مانع من التعرف على أشكال البشر ليكون لديها خزين من المعرفة.

تعرفت وصاحبت الكثير منهن، تقربت من بعض ونفرت من أخريات. كانت لأميمة الدور الأكبر في نزع وشاح الخجل من على وجه أميرة، تمكنت من ترويضها في بودقة المجتمع الجديد، سرها سماع القصص وانتبهت لقصص بعض النساء التعيسات اللاتي يفضفضن بمشاكلهن مع الازواج، ممن لا يجدنَّ في أزواجهنَّ ما يسعدهنَّ، فشكرت الله على نعمة الألفة

بينهـا وبـين زوجهـا، وعلـى الرقـي الـذي يتميـز بـه عـن سـائر الرجال.

اسـتمتعت بحـديث قارئـة الفنجـان التـي بينـت لهـا طالعهـا حـين قالت لها:...

- ينتظـرك مسـتقبل مشـرق، هنـاك دلالات غـدر تحـاك ضـدك، وبشـرتها بـأن تكـون سـيدة بـارزة فـي المجتمـع فـي غضون أيام أو أشهر، أو سنة..

منـذ تلـك اللحظـة استأنسـت العرافـة لهـا وتقربـت منهـا وصـارت تطلق عليها لقب الخاتون لرقيها بين النساء.

لـم تشـغل بالهـا بحـديث العرافـة كثيـرا، فهـي لا تعتـرف بالبخـت والضـرب علـى الرمـل، وهـي تـدرك كـذب المنجمـين ولـو صـدقوا، كمـا هـي مدركـة تمامـا بكـل مـا يحـيط بهـا. كانـت رزينـة فـي أخلاقهـا، حكيمـة فـي قراراتهـا، أميـرة فـي تصـرفاتها. لـذا أحبهـا المجتمـع النسـوي بعـد تكـرار زياراتهـا، لسـماحتها ولباقتهـا وفـرط جمالهـا وحسـن اختياراتهـا، علـى رغـم مـن أنهـا غيـر مدركة تماما لنوايا المحيطين بها.

نقلـت كـل مـا حـدث فـي دار الشـيخة ومـا دار مـن حـديث ومـا رأت عينهـا مـن وقـائع وطرائـف مـا طرقـت أذنيهـا مـن أخبـار لزوجهـا الحبيب. تلـك الصـفة جعلتهـا تـزداد حبـا وثقـة مـن قبـل زوجهـا، كمـا جعـل زوجهـا لا يمـانع ذهابهـا لبيـت الـداده طالمـا تلـك الجلسـات تزيدها راحة بال وسعادة وحيوية.

وآخـر مـا تداولتـه هـذه الجلسـات مـن أخبـار، خبـر مـرض ملـك الـبلاد، وعـن مـن سـيخلفه؟ وهـو الـذي لـيس لـه وريـث شـرعي يحكم بعده.

سـالت أميـرة زوجهـا المـتعلم والمـدرك والمتـابع لأخبـار شـؤون الدولة، كونه موظفا مرموقا في دائرة بلدية المدينة...

- أحقـا أن ملـك الـبلاد يعـاني مـن مـرض عضـال وهـو علـى فراش الموت ؟
- يقولـون ذلـك والله أعلـم، أسـرار القصـر لا أحـد يسـتطيع الاطـلاع عليهـا، كمـا يقـولن بـأن الملـك قـد كتـب وصـية حـول مـن سـيخلفه، وهـذه الوصـية لـن تقـرأ إلا بعـد وفاتـه وأمام الملأ.

تكـررت هـذه الجلسـات أسـبوعيا، أصـبح منهجـا روتينيـا فـي حيـاة الأميـرة الشـابة برفقـة صـديقتها أميمـة، أمسـت لا تسـتطيع الاستغناء عنها طالما تجد فيها التنوع والغرابة والألفة.

كمـا أصـبحت الألفـة بينهـا وبـين (أميمـة) أشـد قـوة ومحبـة، فأخـذت منهـا الضـحكة والنكتـة والمكـر، مقابـل العفـة والرزانـة والشخصية.

تلـك الفـوارق جعلـت أميمـة تتمسـك بهـا احترامـا وتقـديرا، بحيـث لا تخالفهـا رأيٍ أو قـرارٍ، خاضـعة لسـلطانها، منجـرة خلـف ظلهـا. كمـا جعلـت أميـرة تسـتلطف أميمـة، وتسـتعطف عليهـا وتكرمهـا، كأنَّ كلٍّ منهنَّ كنَّ بحاجة للأخرى.

لـذا كانـت أميـرة لا تتجـرأ بـأن تـذهب لبيـت الشـيخة أو الأسـواق إلا برفقتهـا. أعجبـت بحسـن تعاملهـا مـع الباعـة والسماسـرة الـذين يقفـزون علـى ظهـر الزبـون ليسـتغلوه ماديـا. لـذا سـاعدتها فـي تخطـي كثيـر مـن العقبـات الشـراء، وفـرت عليهـا الكثيـر مـن الوقـت والأمـوال خـلال تبضـعها حاجيـات المنـزل، وخاصـة تلـك الأقمشة النسائية الراقية التي أعجبت بها.

***

في كل خطوة من خطواتها كان المؤذن يتبع أثرها أينما تمضي وأينما تحل، وقد تابع هذه العلاقة الطيبة بين الامرأتين، فحاول مرارا أن يستدرج أميمة للإيقاع بصديقتها في فخ علاقة غير شرعية، مقابل رشوة يقدمها لها... إلا أنها أبت ذلك، لما عرفت عنها من عفة وعزة نفس وكياسة وأخلاق، فليس كل طير يأكل لحمه. كما بدورها قد أَطْلعتْ صديقتها أميرة (الخاتون) على ما يدور من خبث في ذهن المؤذن، حذرتها كي لا يستدرجها لمهاوي دناءته.

من جانبها الخاتون لم تخبر زوجها بمحاولات المؤذن الخسيسة لأنها لا تعر إليه أهمية، ولا تجد في محاولاته إلا تفاهة لا قيمة لها، لن يمكنه أن يحقق غرضه معها. في ذات الوقت ودت تجنب الفضائح والمشاكل التي قد تجرها إلى ما لا تحمد عقباها.

كما أنها لم ترغب بأن تعقر الأمور دون أن تكون في الحسبان بادرة ملموسة، كون الأنسان لا يحاسب على الظن أو النية المعقودة في قلبه وفكره، لذا لم تعطي للموضوع أهمية تزيد عن حجمها، كي لا تخرج القضية عن إطار التفاهة لموضع الجدية، ربما تتقيد بفضيحة دون ان يكون لها أساس وواقع، وخاصة هناك من يطبل للباطل بيديه ورجليه.

بعد أنْ كلَّ المؤذن من محاولاته الفاشلة التي سعى إليها مقابل عجزه عن أقناع (أميمة) في استلطاف أميرة؛ أضحى يبحث عن مفاتيح جديدة لأقفال (أميرة) الغليظة.

لـذا شـرع أن يسـلك طـرق أخـرى يختصـر بهـا المسـافة لمآربـه.... فوجـد فـي الشـيخة أفضـل السـبل وأقصـرها للوصـول إلـى مآربـه، مقابـل بعـض المـال يـدرها عليهـا، كـون الطمـع صـبغتها، وكـون الخبـرة مسـلكها، فـالأمر ميسـر معهـا، فهـيَّ صـاحبة كـار معروفـة وتجـارب. هـذه الممارسـات معتـادة عليهـا، لهـا زبائنهـا مـن الشخصـيات ووجهـاء البلـد الـذين تلبـي لهـم رغبـاتهم وتسـتند علـيهم في تسليك أمورها المعقدة.

الشـيخة لـن تمـانع فـي مثـل هـذه العلاقـات الخسيسـة أن تجـري فـي دارهـا طالمـا تـدر عليهـا المـال، إضـافة لـذلك؛ فأنهـا سـتحتفظ بملـف امـرأة جديـدة فـي سـجل الشـرف العـام الممتلـئ بأسـماء البغـاة. هـذا السجل يخر عليها ذهبا من حين لآخر.

وكانـت قـد خصصـت أحـدى الغـرف المعزولـة لهـذه الأعمـال الدنيئـة، لـن يـدخلها إلا أصـحاب الشـأن. لـذا فالاتفـاق مـع الشـيخة لا يكلف المؤذن سوى بخس الدنانير.

أذا أتفـق مـع شـيخة علـى اسـتدراج الخـاتون للمرفـق الجريمـة فـي الخـلاء الخلفـي للـدار، والـذي هـو مرفـق سـري لا تعرفـه سـوى النسـوة اللاتـي مارسـنَّ بـه الـدعارة. غرفـة نـوم مهيـأة بأثاثهـا وحمامهـا، ومطـبخ صـغير، يحتـوي علـى بعـض المسـكرات، مـن نبيـذ وخمـر وفواكـه، كمـا يوجـد فيـه بـاب يـؤدي إلـى الفنـار الخارجي لشاطئ النهر.

خـلال أحـدى الجلسـات النسـائية، كـنَّ النسـاء منشـغلات بقارئـة الفنجـان، كـل مـنهنَّ تبحـث عـن ذاتهـا فـي عنـق الزجاجـة، منشـغلات فـي إرهاصـاتهنَّ ومشـاكلهن. اسـتدعت الشـيخة السـيدة

خـاتون أو أميـرة للخـلاء لتـداول معهـا أمـر هـام وسـري، كونهـا صاحبة عقل راجح وذات وجاهة.
وبحسـن نيتهـا تبعـت خطـوات الشـيخة المسـمومة حتـى أدخلتهـا الغرفة المعنية. أجلستها على سرير قطني، وقالت لها..
...:أمهلينـي خمـس دقـائق حتـى أعـود إليـك لأطلعـك علـى سـر هـام وجدي.
خرجـت شـيخة ولـم تعـد إليهـا، كانـت قـد أوصـدت الأبـواب الداخليـة والخارجيـة وعـادت لجلسـات السـمر التـي تـدير شـؤونها وكـأنَّ شيئا لم يكن.
أمـا أميـرة التـي بقيـت وحيـدة فـي الغرفـة تنتظـر عودتهـا دون جـدوى، خالهـا الشـك مـن سـعي شـيخة ومـع ذلـك فضـلت الانتظـار لتعـرف الخبـر اليقـين، كـان للفضـول دور فـي تكبيلهـا، وهـو الـذي شـرع فـي بلـورة فكـرة الجلسـات، فمعرفـة الأسـرار غايـة تـود خوض غمارها.
لـم تمضـي سـوى لحظـات، حتـى سـمعت صـرير بـاب يفـتح، تأملـت خيـرا، توقعـت بـأن الشـيخة قادمـة، لكنهـا دهشـت حـين رأت المـؤذن يـدخل الغرفـة بلبـاس أبـيض أشـبه بالشـبح فـي القصـص الخيالية.
أمسـكت ذعرهـا بـين خافقيهـا، وغطـت وجههـا بوشـاحها، وسـألته بتردد...
- من أنت؟ كيف دخلت؟ ماذا تريد؟.
قال لها:..
- أنـا مـن عصـفت بـه ريحـك فذرتـه أشـلاء بـين أشـواك اليبـاب. أنـا مـن فقـد نومـه وصـار شـاعرا ينـاجي القمـر، أنـا مـن قيدتـه

الأسلاك في زنزانة حبك. أنا التائه في حيرة غبراء. أنا العبد المسكين، أبن السبيل، طارق أبواب السعد في ضواحي حناياك. أنا العاشق الملهوف والمعذب بسوط صمتك، أنا الذي فقد أثره وهو يتبع سرك، أنا الغريق في بحرك، أنا قيس الملوح، أنا المجنون بحسنك، أنا مؤذن المسجد!!

- وما تبغي مني يا قيس ؟
- كل شيء فيك هو يعجبني، لبسك، مشيك، جمالك... لقد هجرتُ زوجتي وانشغلتُ بك، فلن يهدأ لي بال إلا برضاك عني. أبغي منك روحك الترفة، وهذا الجسد الناعم الطري الذي يعزف حسنا على أوتار ضعفي ومشاعري.

أنا الهائم في عيونك العسلية. الغارق في شفاهك الوردية. جسدك الرشيق كعود الخيزران، يجلدني كل يوم خمس مرات (أوقات صعوده المأذنة ليأذن بالناس). سأعجبك كثيرا، فقط جربيني! سأكون لك عبدا مطيعا، سأكون المارد بين يديك ما حييت، شبيك لبيك أنا العبد بين يديك.

حينها أدركت بأنها قد وقعت في فخ الدادة ومصيدة المؤذن، أنها بين فكي كماشة فلا بد من مكر، وحيلة، تجنبها خدوش جلدها الطري. لا بد من تسيير الأمور بالعقل، والدهاء، قبل أن تفقد من وجهها البهاء والحياء.

حينها تذكرت حديث أميمة عن هذا المعتوه الذي يلاحقها، لذا خلعت وشاحها، ابتسمت له برقة وعذوبة قل نظيرها، حتى ذاب شوقا فيها. قالت له:...

- حسنا يا قيس أنا لا أمنع نفسي عنك، طالما أنت تعشقني

لهذا الحد... لقد أخبرتني أميمة عنك وعن محاولاتك معها لأقناعي كثيرا.... لكني كنت خجلة منها، لا أود أن يعرف أسراري كائن من كان، أنا أيضا أود الاستمتاع بعاشق فريد مثلك... بحب من نوع آخر لا يمتلكه زوجي.
سأتفق معك على كل شيء... على أن تحافظ على السرية من أقرب الناس لك، انا وضعي حساس جدا، لا أريد إشاعات تلفني وتلقفني بين ألسنة الناس.

- نعم الرأي – وهو كذلك.
- إذا لا تستعجل! فلن تنالني إلا بشروطي – فلست كباقي البغاة من النساء.
- اشرطي ما بدا لك يا خاتون.
- أولا عليك أن تخبرني كم دفعت للداده كي توقع بي؟

نكس رأسه، أجاب خانعا --- عشرة دنانير.
أخرجت من جيبها عشرة دنانير وسلمته له.

- خذ فلوسك... أنا لا أبيع جسدي لمن يعشقني، بل أهبه ما يريد.

تلك الكلمات هدأت من جماحه، قيدت انفعالاته صار أشبه بالقطة الأليفة. أراد أن يمسك يدها، لكنها خاتلته ومنعته. فقالت له:...

- ليس قبل أن تنفذ الشرط الثاني....عليك أن تستحم أولا.
- أني استحممت وجاهز منذ ساعة تقريبا... كنت أنتظر قدومك على أحر من الجمر.
- إذا عليَّ أن أستحم.... وعليك أن تخلع ملابسك بالكامل وتنتظرني هنا (أشرت على السرير القطني). على هذا

السرير حتى أتم استحمامي، يجب أن أكون جاهزة لتقبلك نفسيا وبدنيا وروحيا، وإلا فلا أستلذ بك ولا أنفعك.

خلع كل ملابسه حتى الداخلية منها، أخذت ملابسه معها إلى الحمام، حاول أن يمسك بها إلا أنها فلتت من قبضته، دفعت به برفق للخلف مع ابتسامة مذهلة رشقت شفتيها، فترنح على السرير القطني. ثم قالت له:..

- لا تكن عجولا يا قيس، أنتظر ليلى تأتيك بأبهى صورة، بمثل منظرك هذا، (أشرت عليه بأصبعها دلالة على الخلاعة الذي هو فيه).

دخلت الحمام وأوصدت الباب عليها من الداخل بمزلاجه، تركت صنبور الماء يجري ليترك خريره طمأنينة في قلبه على وجودها داخله، ثم رفعت مزلاج قفل الشباك الواسع المطل على الشاطئ بكماشة حديدية صغيرة متروكة داخل الحمام لأجل الصيانة.

قفزت من النافذة وتمكنت من الهرب بعد أن تمزقت ثيابها وخدش ساقها.

انحدرت مسرعة نحو الشاطئ، وهي تركض بجلبابها تحت وحشة الليل ونباح الكلاب، تلك التي تخترق الهدوء الموحش لتزيدها وحشة وخيفة، دفت ملابس المؤذن في وسط الأحراش بين ثنايا الأشجار الباسقة، فهيَّ لن تستطيع العودة للبيت، بعد أن تغير عليها الطريق وتأخر الوقت، الخوف كابت على قلبها.

وقبل أن تصل مرفأ الشاطئ شاهدها أحد حراس الليل، أوقفها في طريقها، أعجبته، سحر بجمالها، وجد فيها فرصة لطرد وحشة الليل والوحدة عن ذهنه.

مد يده على خدها، ابتسمت له، ضمها إلى صدره، حاول أن يقبلها، انسلتت من بين يديه كالسمكة، خارت قواه، جذبها تحت ظلال شجرة صفصاف بقوة، أمسكت يده، حاورته، اشترطت عليه أن يخلع ملابسه كاملة قبل أن تستسلم له.
لانَ لشرطها، عاطفته غلبت عقله، تمكنتْ بدهائها من أنْ تسرق سلاحه وثيابه، هددته بالقتل إذا ما لاحقها.
تركته حائرا في أمره، لا يتجرأ أن يرفع صوته، لهوانه وهو عري يقف أمامها. حينها انطلقت بعيدا عنه، في زاوية من الشاطئ تمكنت من تبديل لبسها بلبس الشرطي، أخفت كرستال شعرها تحت القبعة الشرطة (البيرية). اتجهت للقارب، فلم تجد مشقة في ركوبه، الحرس مهاب من قبل الجميع، مقدر من الصغير والكبير، ذا سلطة و ذا أمر مطاع.
صعد الشرطي(أميرة) مع عدد قليل من المسافرين في القارب متجهين إلى مركز مدينة بغداد. لم تكلم أحدا داخل القارب، لكنها شعرت بأن البلام لا يفك نظره عنها. لم ير شرطي بهذه الوسامة والرقة، كما أنه من المفروض أن يعرف كل الذين يعملون في سلك الشرطة، كونه ينقلهم من ضفة لأخرى باستمرار، ولكن هذا الوجه كان غريبا عنه.
لم تدم المدة طويلا وصلت للضفة الثانية بعد انحدار القارب ساعة زمن في النهر، بات الفجر ينبلج نوره في الأفق، وصارت خيوط الشمس تذلل برد نيسان.
جلست لدقائق معدودة وحيدة على جرف الشاطئ لاستعادة أنفاسها وترتب أفكارها، تذكرت زوجها الطيب، فهي خجلة من مواجهته ما كان عليها أن ترافق بنات السوء. أحست

بالـذنب اتجاهـه، كمـا أحسـت بـأن الـدنيا غـدارة فـي طبعهـا، فهـي حـين تضـحك تخفـي خلـف ضـحكتها مـآرب وهمـوم جمـة، تلـك التجربـة عرفتهـا علـى معـادن البشـر ومـآرب النـاس وغايـاتهم التـي لا تـدرك. النفـوس لا تتشـابه فـي سـعيها، بعضـها طيـب وأخرى معجنة بالسوء.

نزلـت دموعـا علـى خـدها الناصـع، مسـحتها بـ أتـراف كفيهـا، شـهقت شـهقة ملئهـا حصـرة ونـدم ألمـت بهـا. سـارت وحيـدة تجـر خلفهـا حيـرة صـماء، كيـف سـتواجه أهلهـا، كيـف ستصـل إلـيهم، وهـي فـي قـرارة نفسـها لا تسـتطيع أن تكلـم بشـرا فـي الطريـق، الكل يطمـع بهـا، كمـا أنهـا لا تـود أن تكشـف سـرها بارتـدائها لبـاس الشرطي.

أخـذتها أقـدامها تحـش بهـا المسـالك الـوعرة، والتـي لـم تسـلكها مـن قبـل، كـان قـدرها دليلهـا والحـزن رفيقهـا، الصـدفة قادتهـا إلـى سـاحة كبيـرة مفتوحـة مـن كـل الجهـات يتجمـع بهـا جمهـور كبيـر من الناس.

ودت أن تتقصـى الأمـر، وقفـت مـع الـواقفين فـي الخطـوط الأخيرة يدفعها فضولها لتقصي الحقيقة.

سـالت امـرأة عجـوز واقفـة بجانبهـا وهـي لا تسـتطيع أن تكـف دموعهـا، الحـزن يخـامر مقلتيهـا المرتعشـتين، المحمـرتين. قالـت لها:..

- ماذا يبكيك يا أمي ؟ لِمَ هذا الحزن ؟
- يـا حسـرتي علـى الملـك الطيـب، كـان عـادلا فـي كـل شـيء، حتـى فـي وصـيته لـم يـبغض أحـدا... لقـد مـات دون أن يترك خليفة من صلبه.

- هل مات الملك؟.. هل عرفتم وصيته ؟
- أكيد يا بني؛ طلب من الحاشية أن يختاروا أميرا جديدا للبلاد عن طريق طير السعد.

(طير السعد: حمامة بيضاء يتم إطلاقها فوق رؤوس الملأ، وإذا ما وقفت على رأس شخص؛ سيكون ملكا على العرش) .

ادركت بأن الملك قد توفى، وأن هذا التجمع والاحتفال هو لاختيار الملك الجديد، لذلك دفعها الفضول أن تشاهد تتويج الملك الجديد، رغم الإرهاق والتعب الذي حل بجسدها، رغم الجوع والعطش الذي تشعر به.

لكن فرصة التتويج هي فرصة نادرة، لن تتكرر ألى خلال عقود من الزمن. حيث الملوك لن تترك عروشها إلا بقدر الموت، أو بالثورات والانقلابات العسكرية. سحر الكرسي لا مثيل له، يجعل مراوده يلتصق به. وعسى أن يكون خيرا يخدم الناس البسطاء والوطن.

وبعد الخطاب التأبيني المخصص لروح الفقيد، الذي أستهل به رئيس الوزراء الاحتفال، أذن بأطلاق طير السعد أمام الملأ، لاختيار الملك الجديد.

استل تلك اللحظات من الصمت المطبق على الجمهور، ليتبع دوران طير السعد بعد أن دار دورتين فوق رؤوس الجمهور، ليحطَّ أخيرا على رأس الشرطي (أميرة).

تهللت أفواه الجمع بالترحيب والهتافات، لكن ذلك لم يعجب بعض المتنفذين في الحكم، كيف يمكن لشرطي أن يكون ملكا، بعضهم أقترح بإعادة أطلاق الطير لتأكيد النية.

لـذا تـم إعـادة الكـرة مـع طيـر السـعد، وكمـا كـان فـي انطلاقتـه الأولى، عاد وحط على رأس الجميلة أميرة مرة أخرى.

حينهـا حسـم الأمـر رئـيس الـوزراء، فـأقر بصـحة الاختيـار، وتـم إعـلان أميـرة ملكـة علـى العـرش، بعـد أن شـرحت لهـم قصـتها مـع لباس الشرطي.

أنهـا فتـاة جـار عليهـا القـدر، فـأجبرت ذاتهـا علـى الهـرب مـن قـدر لقـدر آخـر، حاصـرها المـؤذن بنذالتـه، فلـم تجـد مناصـا مـن الهـرب لتجـد نفسـها فـي مخمصـة نـزوة الشـرطي، ومـا أن تمكنـت مـن أن تنجـي ذاتهـا مـن شـباكه القـذرة، حتـى سـاقها القـدر إلـى سـاحة التتـويج لتتـوج ملكـة علـى الـبلاد. مثلمـا أذلهـا الفضـول، عـاد وأرتقى بها لقمة الإباء.

احتفلـت الـبلاد بتتويجهـا، فألبسـوها تـاج العـرش. شـاع خبرهـا فـي الأرجاء، **امرأة حسناء أرتقت عرش الأمراء**.

بعد أن توجت أقرت عدة قرارات.....

كـان قرارهـا الأول نشـر صـورها فـي أرجـاء الـبلاد، وإلقـاء القـبض علـى كـل مـن؛ المـؤذن، الشـرطي، زوجهـا، أميمـة، الـدادة، والـبلام، العرافـة، بعـد أن أشـهدتهم علـى أفعـالهم، أعتـرف المـؤذن، بأنـه قـد هـام بهـا، فلـم يسـتطع كـبح جماحـه فأسـتغل الشيخة للإيقاع بها.

أعتـرف الشـرطي بـأنَّ دفعتـه نـزوة لاسـتغلالها تحـت جـنح الظلام.

اعترفـت الـدادة بأنهـا أرادت أن توقـع بهـا مقابـل بعـض المـال المدفوع لها من قبل المؤذن.

شهدت العرافة بأنها ذات خصال نادرة.

شـهدت أميمـة بأنهـا فقـدت صـديقة رائعـة علمتهـا الأدب والـدين والعفة.
شهد زوجها بأنه لم يذق طعم النوم من يوم فراقها.
بذلك اتخذت القرارات التالية...
1- إحالـة الشـرطي علـى التقاعـد لأنـه لـم يكـن أمينـا علـى أمـن الشعب.
2- فـض جلسـات السـمر التـي تـديرها الشـيخة، والتـي فـي ظاهرهـا طراوة وفي جوهرها سمسرة ودعارة.
3- سـجن الشـيخة عشـر سـنوات لارتكابهـا جـرائم كثيـرة بحـق بريئات أمثال الملكة.
4- حكـم علـى المـؤذن بالمؤبـد لمخالفتـه قواعـد الشـرع والـدين، وتجاوزه وتعديه على حرمة النساء.
5- أبرأت البلام.
6- قربـت أميمـة كوصـيفة لهـا فـي القصـر الملكـي، والعرافـة كحكيمة تعينها على الزمن،
7- احتضـنت زوجهـا، ثـم نصـبته ملكـا علـى الـبلاد بـدل عنهـا، وبذلك عاشوا بسعادة وهناء واستقرار وراحة بال.
*(هـذه القصـة مـن المـوروث، روتهـا لـي أمـي الغاليـة يرحمهـا الله وأحسن مثواها، فصغتها بأسلوب شيق).

الطرائف في استكان الشاي

عبدالحسين الجايجي: الرجل الطيب، صاحب النكتة اللاذعة، ذات الملامح العربية الأصيلة بوجهه الأسمر وطوله الفارع ورشاقة جسمه. سحنته الشرقية وبداهته، أضفت عليه كرزمة جذابة، بحيث الكل يتقبل مشاكساته ومداخلته، فهو بكيانه عنوانا للبساطة والألفة والطرافة.

تلك الشخصية المرحة، الجذابة، بشعره الأشيب المشظ فوق أذنيه ونحول جسده الرشيق، يبدو للناظر في قمة المقبولية لسلاسته وطيبه، رغم كبر سنه ومشاكله المادية وتعبه النفسي، تجد في حيويته حركته دؤوبة محبة للحياة.

كان سلسا، محبوبا، مقبولا، لطيفا، تهجس به يخلق من شجون الناس بسمة على شفاههم، رغم الأسى والتعاسة المحيطة به. كأنَّه يود جلي النفس من الهموم الكابدة عليه. كان قريبا جدا من الناس، بل هو أقرب إلى الناس من قربهم إليه، لذا تجده يسأل عن أحوال معارفه وأقرانه من أصحاب المحلات والمقاهي باستمرار.

عيناه غائرتان في محجريه، تحكيان جلد شقاء السنين، شبع من الفاقة وتعب من الحاجة عبر مراحل حياته، تلك الحقب عفرت وجهه بخطوط الشقاء وسقم الصبر. تهجس به كعمود النور الصمت يطبق على فاهه، الحيرة تخفق في نظرات عينيه، يلفظها حسرات دخان من صدره، دون أن ترتقي به الأيام والسنين لدرجة القناعة. تلك الحقب برعت في توظيف

ألـوان الفاقـة والحسـرة علـى ملامـح وجهـه، كأنـه بذاتـه أضـحى لوحـة تحكـي بإمعـان مراحـل الضـنك والفاقـة التـي مـرت علـى الـوطن، جـراء عـدم اهتمـام تلـك الحكومـات المتعاقبـة برفاهيـة الشعب.

كـان يـدير أمـره بـالممكن مـن خـلال كشـك صـغيرة يبيـع فيـه الشـاي إلـى زبائنـه، يحتـوي علـى خمسـة أو سـتة كـراس بلاسـتيكية مـع نضـيدة صـغيرة مطروحـة بجانـب جـدار دكـان محمـود دبـه بيـاع الـثلج المشـهور فـي مدينـة جلـولاء، فـي رأس ممـر ضـيق يـؤدي إلى أزقة محلة الطليعة.

خلـف موقـده المنصـوب فـي العـراء، وعلـى تلـك النضـيدة، وضـع سـلطانية معدنيـة مـن الألمنيـوم معبئـة بمـاء غسـيل إسـتكانات الشاي (أقداح الشاي) المستعملة.

زبائنـه هـم أصـحاب الـدكاكين القريبـة منـه وخاصـة (كامـل مطشـر، محمـود دبـه، أبـراهيم بلـور، أحمـد دوندرمـه، حميـد دسكوت، محمد رضـا، حجـي حسـين --- الـخ) وقسـم مـن المـارة والمعـارف مـن عامـة النـاس، كـون المكـان يعتبـر مركـزا وسـطا لسوق جلولاء.

بشـكل عـام؛ هـؤلاء مـن تـربطهم بـه علاقـة قديمـة قـدم تأسـيس جلـولاء، منـذ ان كـان جنـديا فتيـا قبـل ثـورة تمـوز 1958. حينهـا تعرف على تلك الوجوه وبنى معها علاقة صداقة.

كـان يسـتقطب زبائنـه بروحـه الترفـه وضـحكته المعبئـة بـ شـكولاتة القهقهـة، والمدهنـة بالطرافـة والغرابـة وبالنكتـة اللاذعـة، ذلـك مـا عـرف عليـه، لـذلك كـان محبوبـا مـن قبـل الجميع..

يشـاغل ذاتـه بمداعبتـه الآخـرين برشـاقة الأسـلوب رغـم طوفـان الحـزن الواهـف فـي ملامـح وجهـه كبقايـا ذرات عاصـفة ترابيـة

معشقة في ثناياه، نتيجة عجز الفاقة وكدر السنين. رغم ذلك كان بارعا في رسم البسمة على شفاه زبائنه.
دائما ما نستأنس بجلوسنا في مقهاه المتواضعة، خاصة حين يطربنا بمواويله الريفية القديمة، كأغاني (داخل حسن وحضيري أبو عزيز وعبد الصاحب شراد التي يجيد إدائها.. الخ). إضافة إلى أننا نسترق الفرص من بين يديه لنستمع للطرفة لاذعة من التي يبرع في إلقائها.
كنا نحتسي الشاي المهيل، تلك النكهة الخاصة بمشارب العراقيين التي تمنحنا دفقا من الراحة والمتعة. كنا نطيل الجلوس عنده، مع تكرر شرب الشاي الكسكين (الثقيل، الغامق) الذي يبرع في تخديره، محبة به ومتعة بما يجزل علينا بعفويته.
ومن طُرَفِهِ السريعة اللاذعة، التي برع في إلقائها بين الحضور، حين عَدّتْ به سيدة من سكنة الزقاق، وهيَّ من سنه تدعى أم صباح؛ امرأة طاعنة، قصيرة القامة، بدينة، من اللواتي عندهنَّ المزاح طبع متجذر وليس سلوك مكتسب، كانت في مشييها تميل إلى جانب الساق التي ترتكز عليه لفرط سمنها. وخلال مرورها مازحته وهي ماضية في طريقها لسوق الخضار، لتتبضع طبخة اليوم. قائلة له:..

- صباح الخير أبو حافظ -- أشوفك أمتخنخ (أي منبسط) اليوم، من الظاهر على وفاق مع أم حافظ هههههه!!
- لذلك تريننني مبهدل، هارب من الفجر لأشغل نفسي في المقهى، هههههههه..
- هههههه قل لي: ما هي طرفتك الجديدة؟...

جلست لترتاح قليلا على أحد كراسيه، حتى تستعيد قوتها لتكمل مشوارها. حينها استقبلها مرحبا بها..

- هـلا ومية هـلا، حلـت علينـا البركـة– (وهـو قـرب الموقـد وفـي يـده استكان شـاي قدمـه لهـا)، تفضـلي أشـربي الشـاي يـا شـيخة، الـدنيا مـا تسـوه أن نغتـر بأنفسـنا، هـذا المخـاض العسـير لا ينفـك عنـا (يقصـد أيـام الحـرب). أسـمعي يـا أم صباح. هذه الطرفة....

إمـرأة فـي أول أسـبوع مـن زواجهـا قالـت لزوجهـا:-- أراك تنظـر فـي ورقـة عقـد القـران، يـا تـرى عـن مـاذا تبحث؟.....

رد عليها بهدوء:....

أبحث عن تأريخ انتهاء العقد.

هههههههههههه

- :تسلم أخويـة نكاتـك حلـوة، شـيّك، عسـل، فعـلا أنـا محتاجـة الشـاي مـن يـديك الكريمـة! أنـا أشـعر بصـداع شـديد، اشـعر بـدوار لا أدري أن كـان السـبب الكِبـر أم الهـم الكابـد علـى قلبي.
- سلامات – سلامات يا أم صباح– ألا ترين نفسك؟
- ما بيها؟
- كأنك كيس طحين وتقولين أنا متعبة. هههههههه

أكيـد يصـيبك التعـب؛ خففـي مـن وزنـك.... هيَّـا اختـاري:.. مـاذا تريـدين؟ حبـة بنـدول أم حبـة العافيـة (حبـة العافيـة تؤدي إلى إسهال شديدٍ جدا، ومؤذٍ)؟ هههههههه.

- هههـه بـيش طـالبني (بمـاذا تطـالبني لتشـمت بـي) صـدقني هـذا لـيس سـمنا؛ أنـه مـرض، حتـى أنـي لا أأكـل شـيئا --- لالا-- أنـا فقـط مشـغولة بـأبني صـباح !! لقـد تأخر بعودته من جبهة القتال هذا ما يقلقني.
- أطمـاني؛ بكـرى يعـود بأذنـه تعـالى. تجديـه قـد تعلـق ببنـت بصراوية، لأجلها نساكم، هههههههههه.

- يا ليت أن يفعل ذلك، أنه يوم المُنى، فهو طيب القلب لا يجرؤ! لو فعلها سأكون سعيدة .. قبل أن اذهب سمعني طرفه لأنسى الهم قليلا؟

التفت إلينا ليسمعنا الطرفة ربما كي لا يعيدها مرة أخرى أو ليشد أنتباهها وانتباهنا:....

- طالب كسلان لم يذهب لاستلام نتيجته في نهاية السنة، فأرسل أخوه وقال له:...

عندما تعود لا تفضحني، اذا كنت راسب في درس قل لي محمد يسلم عليك، واذا كنت راسب بدرسين قل لي محمدين يسلم عليك.

- عندما عاد أخوه من المدرسة وجده بجانب أبوه، فقال له:....

أمة محمد تسلم عليك. هههههههههههه.

علت الضحكة كل من سمعها، فن إلقاء النكتة لا يتقنه إلا الماهرون، كان عبدالحسين الجايجي من أمهر الناس بها.

لم تمر حقبة هدوء واستقرار على العراق، كأنه يقبع على بركان غضب يتفجر بين الأحايين، بحيث يذهب حاكم جائر ليأتي من بعده من هو أكثر جئرا وغلا ومكابدة. رغم عمره الخمسيني، إلا أنه يتراءى للناظر فوق ذلك بكثير، لشظف النعم وقلة الراحة في أسطر حياته.

لقد كان فيما مضى أحد جنود اللواء 19 تحت أمرة عبدالكريم قاسم الذي أطاح بالحكم الملكي في 1958. والذي كان مقره في مدينة المنصورية، لذا بعد أن تزوج استقر في جلولاء، علما هو ينتسب لمدينة الحي في محافظة واسط.

بعد أن أستقر فيها أصبح قطبا من أقطاب سوق جلولاء الحيوي، ومحورا من أصالتها، غالبا ما كان يرتدي بدلة

رماديـة اللـون لتتناسـق مـع لـون قميصـه النيلـي أو الأبـيض، ينتعـل في قدميه صندلا يسحل به الطرقات.
لسـيجارته المتقـدة فـي فمـه كبريـاء، تكـاد لا تسـقط مـن فمـه، إنهـا قصـة تعـايش أزليـة، أُبرمـتْ بـين جسـده المنهـك ونفـح الـدخان، لشـعره الأشـيب وقـع علـى شخصـيته، كأنَّـه أخـذ لونـه مـن لـون الدخان المشيح من فاهه.
مـا يشـده إليهـا هـو رابـط حميمـي، رافـق سـنوات القنـوط واليـأس وشـظف العـيش، تعلـق بهـا فأرهقـت كاهلـه، أسـرته لمهاوهـا، فبـات يهجـس بـأن الحيـاة دونهـا لا تهـون، هـي بـاكورة صـبره وملاذ سلوته.
حـين نصـحته يومـا مـا علـى تـرك التـدخين، كونـه ضـار بصـحته التي خف بريقها، قال لي:..
- يـا بنـي، السـيجارة قتلـت أمـي وأبـي! فبيننـا ثـأر قـديم. هـل شاهدت أحدا يترك قتال والديه؟؟؟...
.هههههه.. ضحكت مرددا:...
- لا اكيد لا، وهل يجوز له ذلك؟ هههه.

إنـه بكيانـه لوحـة تختصـر الـزمن الجميـل، زمـن الطيبـة والقناعـة، شخصـية هلاميـة، معجونـة بخميـرة الطرفـة والكلمـة الطيبـة المنمقـة، رغـم تعاسـة حالتـه، إلا أنهـا منحتـه صـبرا جمـيلا، صـيرته كجـدار أصـابه التعريـة، جعلتـه يغـزل الطرائـف كغـزل بسـاط الشَّـعَر، يمـزج بـين الـروح والكلمـة، فتخـرج الطرفـة منمقـة. هذا هو ديدنه، لبنة من طين أهل الجنوب الطيب..

أحيانا يحتاج الأنسان إلى البسمة كي يستطيع مصاحبة نكد الدنيا، فمن جلد السنين صقل طباعه بالطرفة. بذا صار يعكس ظل روحه على الآخرين، كشجرة تفرش ظلالها فوق رؤوس صلتها الشمس.

***

وفي أحد أيام الصيف، كنت أصغي إليه وهو يتحدث إلى محمود دبة قبل صلاة المغرب بدقائق،(محمود رجل قصير القامة، أبيض البشرة، نحيف، أملط، مشهور ببيع قوالب الثلج والمرطبات). أراد أن يوعظ عبد الحسين الجايجي فقال له:..

- يا عبدالحسين؛ لقد مرت فترة الشباب، ولم نعد نقوى على المهاترات واللعب، لقد لعبنا كثيرا وحان وقت الجد، يجب أن تلين وتترك زجاجة الخمر، أتجه معي للعبادة، ما بقي شيء من العمر نرتكز عليه.
- هههههههههه سبحان مغير الأحوال، كنت تشرب الخمر بالطاسة، الآن صرت توعظ. يا سبحان مغير الأحوال، هههههه.
- ذاك زمان ولى، كنا قد انحدرنا كثيرا في طرق الغي، لم نكن نعي العواقب، غدا عندما تموت، ستتوسل بي لأتوسط لك حتى تدخل الجنة.
- هههههههه لا لا، لن أتوسل بك، هههههه، حسن لطيف موجود (حسن لطيف هو غريم محمود دبه في بيع قوالب الثلج) هههههههه.. ثم هل أنت واثق من نفسك تدخل الجنة، ليش هي هونطة (أي بدون حساب

) هههه --- أما نحن أن ضاقت بنا الدروب سنسلك طرقا أخرى. هههههه.

حينها ذكر طرفة لمحمود دبه قبل أن يودعه، قائلا له:...

- قجغجي (مهرب) مات، كانت حسناته تساوي سيئاته، فوضعوه في منطقة وسطى بين الجنة والنار-- الملعون صار يهرب أهل النار إلى الجنة مقابل مبلغ زهيد. هههههههههه

محمود :هههههههههه... حلوة ... حينها تكلم محمود قائلا اسمع هذه النكتة:---

- رجل سكران، أول مرة يشرب الخمر في حياته. بعد أن لعبت الخمرة في رأسه، نزل إلى الشارع العام، أوقف عجلة تكسي مارة أمامه، سأل صاحب التكسي-- هل أنت فاضي؟
- نعم فاضي كما ترى.

قال له السكران:-

- طيب يا طيب، أنزل خلينا نسولف.

هههههههههههههههه

حين أذ أذن المؤذن صلاة المغرب – الله اكبر – الله اكبر-

آن ذاك؛ اتجه محمود إلى المسجد تاركا عبد الحسين الجايجي على كرسيه يتأمل يوما أفضل من يومه القانت.

***

كثيرا ما كنت أفطر في مقهاه، بعد أن أبتاع صمونة معبئة بالقيمر من المعيديات{مربيات الجاموس وبائعات القيمر

والروبة (الخاثر)} اللاتي يفرشنَّ الأرض بصوانيهن في بقعة أمام محل الباتا (شركة باتا للأحذية) للمرحوم عبدالرحمن الجلبي، قرب القنطرة الوسطية التي تربط محلة الطليعة بمحلة الوحدة، في وسط السوق. حيث أرتشف الشاي على رواق مع فطوري.

في أحدى الصباحات؛ جاء أحمد دوندرمه بلباس عسكري يود الالتحاق بالجبهة، ضمن قاطع الجيش الشعبي،(أحمد رجل بدين، طويل القامة، ذات كرش رهل، عمره يتجاوز الأربعين عاما، دكانه يقابل مقهى عبدالحسين جايجي.

جلس في المقهى ليرتشف الشاي.

قال له عبدالحسين الجايجي: ...

- لك وين رايح أنت مال حرب؟ (اين ذاهب انت لا تصلح للحرب)
- يا أبو حافظ ماذا نعمل؟ حكم القوي على الضعيف، هل حسين عبدالله ومحمود رمضان ينفكان عنا، (مسؤولا حزب البعث الحاكم المشرفان على جمع فلول الجيش الشعبي أيام الحرب في المنطقة).

عبد الحسن الجايجي قال:.....

- أسمع يا أحمد: يقال أن رجلا سأل إمام المسجد، قال له:- يا شيخ؛ أنا اليوم أكلت سمكة وصحن طرشي، ثم تذكرت أني صائم.. ماذا عليَّ أن أفعل؟(شسوي).
- سوي استكانين شاي. هههههههه..

. كان فصل ضحك صباحي جميل تم على أثره توديع أحمد لجبهة الحرب.

****

يُعدّ الضّحك شكلاً من أشكال التّعبير عن الفرح أو السّعادة، وتظهر آثاره الخارجيّة على الإنسان، ويُعتبر جزءاً من السّلوك الإنساني الّذي ينظّمه المخ.

الضّحك يساعد على إيضاح نوايا الفرد، وزيادة تفاعله الاجتماعي، ويعد إشارة قبول عند المتلقي للتّفاعل الإيجابي.

احيانا يكون الضّحك ظاهرةً مُعديةً، أي إذا ضحك شخصٌ، يحفّز الآخرين على الضحك. ثم أنه يحمي القلب بشكلٍ غير مباشر، حيث الضّغوطات العقليّة تسبّب خللاً للبطانة الّتي تحمي الأوعية الدموية، تأثّر البطانة ينجم عنها ردود فعل تسبّب تراكم الكوليسترول على جدار الشرايين التاجيّة، ممّا يؤدّي بالنّهاية إلى حدوث أزمات في القلب. وعندما يضحك الإنسان، فأنه يفرز هرمون الكورتيزون الذي من تراكم الكوليسترول بذلك يخفف من تصلب الشرايين.

الضّحك يمنح سعادة آنية، تزيد من قدرة الفرد على التأمّل والاسترخاء، كما أنه يساعد على توتّر كلّ من يسبّب لك ضيقا وعداوة، يجعل الفرد يبدو أكثر شباباً، ووسامة وألقا، يمنحه ثّقة عالية بالنّفس، ينمّي قدرته الإبداعيّة، كما أنه يقلّل من الشخير، ويساعد على شد عضلات الوجه والحنجرة، كما أنه يرفع من مستوى الأداء العقلي، ويقوّي الذاكرة.

لذا فأن الضحك مفيد جدا. اضحك، تضحك لك الدنيا.

****

في أحد الأيام التقى عزيز حلاق بإبراهيم بلور في دكان الأخير، وهو مجاور لدكان أحمد دوندرمه، عزيز هو أشهر

حلاق في تاريخ جلولاء، ذا شعبية في السوط، ليس لمهارته فقط، إنما لخفة دمه. كان قصير القامة، بدين الجسد، بحيث كرشه يتقدم على صدره، التقاه حين استضافه الأخير على أستكان شاي.

أذكر موقفا جميلا لعزيز حلاق في عرس أخي الأكبر. كان يرتدي بنطلونا أزرق اللون وقميصا أبيضا، كان لايزال في مقتبل العمر. كانت العادة أن يحلق العريس في يوم الحناء وسط احتفال الأهل والجيرة به، كان ذلك عام 1968.

كانت الكنبات متراصفة على مساحة المحلة بشكل مربع، جلس أخي في وسط الدائرة، إلى جانبه مطروحة طاولة موضوع عليها أدوات الحلاقة وقارورة عرق مسيح صغيرة، يرافق عزيز الحلاق أثنان من عازفي الطبلة والدف (الجنزار).

أستمر عزيز في حلاقته لأخي مدة ساعة ونصف إلى ساعتين، كان في كل قصة مقص أو سحبة مشط لتصفيف الشعر، يرتشف قمعٍ صغيرٍ من الجعة، يتحفها برقصة رشيقة يفتعلها، يدور بها حول نفسه وحول العريس، يطلق خلالها أغانٍ شجية بصوت ناغم شجي بصحبة الطبلة والجنزار وبمشاركة لفيف من الجمهور ككورال له.

من الأغاني التي غناها، مربعات الفنان فاضل رشيد، للفوال، من بايكه لهذا الديك، وأغنية يا حمام، ويا حلو شعرك حرير لحسين السعدي. وأغان تركمانية عديدة منها أغنية(هلهله ويرن بوينه للمطرب محمد قلاي)، كانت لمساته واضحة على العرس، كمحور فرح وبهجة، اضفى سرورا على العرس لا نظيرة له.

على أية حال، حين التقى به عبدالحسين جايجي في أواخر عام 1988 تعالت ضحكاتهما على ذكرياتهما القديمة في نادي جلولاء السياحي، ولقد دار حديثهما حول المدعو أبو فخري وهي شخصية وهمية يتُداول أسمه في الطرائف.
حينها قال إبراهيم بلور لعزيز: احكي لنا نكتة من نكاته..
قال عزيز:....

- تحدث أبو فخري في مقهاه لمجموعة من زبائنه قائلا:.. في أحدى ليالي الشتاء، فزَّ أبني فخري من منامه مرتبكا، يشهق، يبكي، يطالبني أن أجلب له ذئبا ليتسلى به، آن ذاك كان بعمر خمسة سنوات.... آلمني بكائه، لم أتحمل نحيبه وصراخه، لذا هممت للوديان أبحث عن الذئاب.
.....لن أطيل عليكم مغامرتي، تمكنت من غبط ذئبين تحت الإبط، جئت بهما إلى البيت.
حين وصلت كان فخري قد غط في نومة عميقة. تركته نائما، أجلت المفاجأة له حتى صباح اليوم التالي، بعد أن أودعت الذئبين في غرفة متروكة واقفلت عليهما مزلاج الباب.
وما أن جلس في الصباح من منامه؛ حتى أخذته من يده للغرفة التي أودعت فيها الذئبين. قائلا له؛..
لقد جلبت لك ذئبين جميلين يا فخري...
فرح فرحا شديدا، بات يتراقص أمامي كالدمية، سعيدا، جذلا، متجها إلى الغرفة.. وما أن فتحت باب الغرفة؛ حتى أصبت بالدهشة!!!!

سألوه جماعته:.....

- ماذا حصل يا أبو فخري.

قال:...

- الذئبان أحدهما آكل الآخر، فلم يبقى منهما سوى الأذناب.

هههههههههههه

علت أصوات ضحكاتهما وقهقهتهما.... قال أبراهيم بلور لعبد الحسين الجايجي –

- رد عليه أن استطعت يا أبا حافظ!! اسعفنا في نكتة ثانية من نكاته- هههههههههه-

قال: ....

- في أحد الأيام تكلم أبو فخري لمجموعة من الزبائن عن أحدى مغامراته الطريفة قائلا:..

في أحد الأيام ذهبت مساء إلى البراري لاصطاد الغزلان، غربت الشمس ولم أشهد أمامي غزالا، وأنا عائد إلى البيت شاهدت في ظلمة الأحراش عينان تلمعان.

وقبل أن ينقض عليَّ كنت قد نحرته بسكيني، وإذ به نمرا أرقط، خرَّ صريعا مضرجا بدمائه..... لثقل وزنه لم أستطع حمله... لذا وضعت فخذا على الكتف الأيمن وآخر على الكتف الأيسر وبتُ أسحل به الطريق عائدا للبيت.

...في هذه الأثناء دخل مقهاه زبونا على عجالة من أمره، طالبا الشاي من أبو فخري.

استأذن أبو فخري من مجموعته قائلا لهم...

- انتظرونـــي حتـــى أصـــب لـــه الشـــاي وأكمـــل لكـــم بقيـــة القصة...

عاد إليهم بعد أن خدم زبونه متسائلا.

- يا جماعة !أين وصلنا في قصتنا ؟

قالوا له:....

- فخذا على الكتف الأيمن وفخذا على الكتف الأيسر.

قال:.....

- و نيك حتى الصباح...

هههههه ، هههههههههه.

علـت القهقهـة، كنـت جالسـا فـي محـل إبـراهيم بلـور أسـمع تلـك الطرائف الجميلة، أياما لها وقع على الذاكرة لن تتكرر.

وقبـل أن أسـافر بفتـرة قصـيرة، شـاهدتها يخرجـان مـن بـاب المسـجد الكبيـر بعـد انتهـاء صـلاة العصـر، يحمـدان ربهمـا علـى الهدايا. كانـا يسـيران جنبـاً لجنـب مـع طيـب الـذكر (الملـة حسـن) قـارئ القـران المشـهور طيـب الله ثـراهم أجمعـين. حينهـا التقـاهم السيد كامل محمد مطشر، ملاطفا عبدالحسين جايجي:....

- أبـو حـافظ الحمـد لله علـى الهـدايا، أبـدا لا أنسـى نكاتـك الحلوة، بالله اقحمنا بنكته سريعة على الماشي هههه..

- صـار يـا طيـب، يقولـون سـودانية لبسـت فسـتانا أحمـرا قالت لزوجها دلعني يا زول.

قال لها: أنتَّ يا فحم يا مولع....

هههههههه

كامل:....

- أسمع هذه يا أبو حافظ.....

بخيل حلم بأنه يوزع فلوسا في الحلم، أقسم على نفسه بأن لا ينام مرة أخرى. هههههههه

بعد أن سافرت؛ وافاهم الأجل، الله يرحمهم ويحسن إليهم، انغمسوا بالطيبة والعفوية، كانوا أشبه بالشموع تنير المدينة، ماتوا ولم نعرف لهم طائفة أو حزبا يمجدونه.

لغة العود والحجر *

لم يخطر في بال سعيد بأنَّ الأنسة بثينة يوم ما ستكون خليلته المقربة بحيث تجعله يغض الطرف عن سواها، لحسنها وفتنتها ونباهتها ورجاحة عقلها. كان قد تأملها مليا فيما سبق، لم يغفل عن ذكر أسمها، لِصفاتها النادرة وحيويتها وأنوثتها وخفة دمها، ولباقتها، فلها من السحر ما يجعلها تتربع على عرش النساء قاطبة، فهي ذا شأن وجاذبية وكياسة.

تلك الصفات جعلتها تتميز عن قريناتها في القرية، جبل شامخ تزهو في نظر من يعنيه الأمر، يصعب تسلق أعتابها وتخطي حواجزها دون فكر ثاقب.

الكثير ود الاقتران بها دون أن يدركوا شواطئها، معضلة الكمال وقفت امامهم كحاجز صد، منعتهم من تخطي أعتابها... لذا وضع نصب عينيه مسألة الكمال والمقارنة، كأنَّه بقرارة نفسه الخفية رفع تلك الحواجز عن طريقه. ما كان ينتظر من الزمن؛ هو الضوء الاخضر، ليشرع بالتفكير بها والولوج إلى عالمها...

ذلك ما أدى إلى حشر العقد في مسلكه دون أن يدري، هو لا يريد أن يكون أحد ضحاياها، كرامته فوق كل شيء، عدم يقينه وضعفه نتيجة قلة تجاربه؛ حالا بين رغبته وتطلعاته المستقبلية فيها، خوفا على الذات من نقمة الفشل. كان قد أجبر على التزام حدود الصمت والتأني، ثمة أمور حادة يهجس بها تتحكم في الرأي والقرار. على الرغم من انه لا يقل شأنا ومكانة عنها إذا

ما قورن بها، أنه أبن مشيخة وسليل حسب ونسب ودواوين، مثلما هي عريقة الجذور في جداول الأنساب.
حاول مرارا الاقتراب من خط النار التي رسمته لنفسها، إلا أنه وجس بالخوف، خانته الشجاعة، خوفا من أن تشكل تلك المحاولة نقطة ارتداد في فكرها، قد تغلق عليه النوافذ والمسارات التي من شانها ترف أزفها ونضوجها حياله.
لتميزها كَنَّ لها جل الاحترام والتقدير، مثلما ذاتها كنَّتْ له ذات التقدير المبجل، حدث ذلك التنسيق بينهما تحت غطاء الصمت المطبق دون أن يخططا له، جرى على شفاه كلا الطرفين من خلال الإشادة والتقييم بالمحيط، فهو لا يود قطع تلك الصلة الخفية التي ترتع بهاجس الظن بعمل طائش أهوج، كما أنَّ عزتها وكرامتها تمنعانها من أخذ المبادرة... لذا دائما ما كان يضع حلمه نصاب عينيه وتبرير ما تسلكه بثينة بين نساء القرية تبعا لحكمة ورضا، دائما ما يألف صداها بصمت يعقده حول ساعده، ليكون له دليل صدق يتبعه.
تلك الخطوط الحمراء لا يستطيع تجاوزها بسلوك عجف تبدد الفكرة، لذا دائما ما ينذر نفسه بالكارت الأصفر قبل أن يشذ تفكيره. هكذا ظل يدور في دوامة الشك حول محور تلك العقد؛ حتى جرفته الحالة لوحل التيه، على الأقل ذلك ما كان يستشعر به في قرارة نفسه تجنبا للملامة. لقد عد محاولاته البائسة نجاحا ذاتيا حتى لو كانت محصورة في مجال التفكير بها فقط، تلك المحاولات منحته صفة البقاء في طابور الانتظار دون ان يبادر في تخطي موقعه بشكل علني، رفعت درجة الإحساس لديه ضمن نطاق الجدية والصدق والرغبة مع نفسه. لذا كان

يشعر بوخز في قلبه الضعيف وهو يقف على بعد ثابت من خط عواطفه، اقتصرت محاولاته على تتبع أخبارها عن بعد.
مرت السنين ولم يجترئا على كسر مرآة الكرامة، ولو على سبيل الإشارة أو رسالة تحملها نسائم المعارف بين الطرفين.
حرصه الزائد وخوفه المزمع وقلة الخبرة والتجرد والعفة وعزة النفس والشموخ والأناة والرجولة، تلك العوامل ساعدت على إيهامه وانكساره امام شموخها، عرقلت مساعيه، قيدته.
ذات العوامل منعتها من أن تخطو خطوة جادة نحوه؛ الطهارة تغشي أنوثتها، العفة تمنعها من تخطي حدودها.
مضت الأيام تسابق بعضها، تساقطت الأرقام من لائحة العمر؛ حتى شعر كل منهما قد خطا خط الشباب، بات على أعتاب العنوسة، عظمت المخاوف في الأعماق، بعد أن شطت بعض شعيرات الرأس بالبياض. جاهرتها العنوسة، دقت ناقوس الخطر، رسمت لها عتمة فوق الجفون. أضحت تفتقد بريق عيونها الناعسة، تلاعبت آفة الشك في ذهنها، توعكت بهجتها، لن يشفي غليلها إلا الزواج قبل أن تنكسر جرتها.
كبرت الهوة بين العمر والحلم، كلت من وقفة الانتظار على قارعة الطرق، بات الامر يرهق ذاتها وينزف فكرها. الأمر مرهون بالتنازل عن كرامتها، العجز أزكم أنفها. لم يبادر مثلما تأملته، لم يقطف ثمرة الخريف قبل أن يفسدها الزمن وهي معلقة في شجرتها، مثلما لمْ تكسر الحاجز الزجاجي الذي يحجبه عنها، تمسكت بالحياء مثلما أوهنه الفشل.
خوف هذا قابل ارتعاد ذاك بذات الصمت والهدوء؛ حتى فرقعت فقاعات الصبر فوق الرؤوس، حالت السعادة إلى

ضباب أغشى بصيرة الأثنين. ذلك ما جعل العقل يصاب بعقم التفكير. غدى لليأس طنين في أذن الذاكرة، الإحساس بنفاد الوقت جلجل فكرها، أضحى يجلدها بسوط الوجل والعنوسة.
كان يكفي الغريق أن يتعلق بقشة يصادفها، قبل أن يجرفه السيل نحو الهاوية.
بعد أن كلت الانتظار، تجردت من التأمل، جعلها تتعلق بأول قشة تصادفها خلال انحدارها مع تيار العمر. لقد تزوجت بثينة من رجل غريب على الرغم من البون الشاسع بين صفاتها وصفاته، كذلك الأقدار زجت بسعيد في زيجة غير مقنعة، حيث بعد أن طارت حمامته من شجرته، تزوج من أبنة عمه التي لا يجمعه بها سوى صفة القرابة..

مع تداول الأيام؛ وبقيت تلك الحسرة تدور في فلك ذاكرتيهما، فلم ينسى أحدهما الآخر. كما تعقدت الأمور بعد أن ولد لكل منهما طفل، كان للحظ نصيب وللقدر سلطان على وقع حياتهما. كان مجبرا على تحمل إرهاصات زوجته بسبب القرابة كما أسلفنا، كما أن بثينة لم تجد سبيلا آخرا تمضي به.
بعد مرور سنة على زواجها؛ أشتد الخلاف بين بثينة وزوجها، ضاقت به ذرعا، تعقدت العشرة، أضحت مستحيلة، أودت بها إلى أنفاصلها عنه، هجست بذاتها غصن كسرته الريح في ليلة مظلمة. كانت قد أهملت زوجها طويلا؛ حتى بات يشكي جفاء العشرة. فلم يعد بإمكانه ترميم شروخ الفكر والجسد، تلك العقد أدت إلى إشهار الطلاق العاجل بين الطرفين.

على الرغم من أن الطلاق بمثابة بينونة صغرى؛ إلا أنها تعتبر الطلقة الأخيرة بالنسبة لبثينة على ما جزعت نفسها مرارة زواجها، لقد مرت بتجربة مرة، عضت خلالها على البنان بالندم، لعدم التوافق.

أخيرا شاع خبر طلاق بثينة من زوجها الغريب، هذا ما سرَّ سعيد. الخيوط التي قطعها الزمن بدت تظهر للعيان، تلك الأخبار أفرحت سعيد (أبو عامر)، جددت في أعماقه الأمل بعودتها له، هو لم ينساها قط، تلك الحقبة أنَّبته، جرت أذنيه، أتعض من تخاذله وبروده السابق.

لذا قرر أن لا يدع الفرصة تفلت من قبضته مرة أخرى، يجب أن يكون القدر والحكم في رؤيا بثينة. ها هو قد جرب غيرها وها هيَّ قد جربت غيره، تعادلا في الخذلان والمصيبة، كل أخذ حصته من الألم والتعاسة، لا ضير أن يصلحا شأنيهما، فهو بحاجة لها مثلما هي بحاجة له.

كلاهما وقع في مطب الكرامة وعزة النفس والحياء والخوف من المجهول القادم، كلاهما ذاقا ذات الويل من نفس الصحن، كلاهما ندم على ضياع الفرصة في لحظة بهتان، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]}. صدق الله العظيم.

السندباد جال في البلاد وعاد مرة أخرى لبغداد. لم لا ... فلن يتخلى عن هواه مرة أخرى، الشرع يسمح بالزواج من مثنى وثلاث ورباع (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) .صدق الله العظيم.

التجربة الأولى زرعت الجرأة في فكر وقلب الطرفين، حتى لاحت شمس الود تشرق في الأفق من جديد.

بعد نبأ الطلاق ود أن يجس نبض زوجته (أبنة عمه) قبل أن يفاجئها بنيته، ود تليين فكرها وإعِدادها لمواجهة الصدمة التي ستدوي في حضنها، فهو لا يخالف الشرع في زواجه الثاني.

إذا يجب أن تعرف أوليات العقدة كي يسهل إقناعها، وأن لم تقتنع فلن يخسر في المحفل سواها، فهو في قرارة نفسه كان قد اتخذ قراره وأبصم على الأقدام بالزواج من بثينة، فلن يتراجع عن عزمه لو أطبقت السماء على الأرض - هي سعادته ومستقبله، لن يتخلى عن هذا الهدف مرة أخرى أطلاقا، بعد أن تجددت الفرصة التي سرقت منه بلحظة غفلة.

لذا بادر زوجته بتبسيط القصة لها دون أن يذكر لها أسمه. وضح لها الملابسات التي حصلت والتي قيدته وأخرته عن مسعاه في الارتباط بها بشكل قصصي لطيف، لذا عليها أن تتفهم وضعه وتتقبل ظرفه الجديد. فقال لها :.....

- يا حبيبتي! هل سمعت بقصة الرجل الذي أغرم بفتاة من قريتهم ولكن لأسباب انشغاله في التجارة لم يستطع الزواج بها.
- عن أية قصة تتكلم ؟ ممكن أسمعها.
- أنشغل التاجر في جلب بضاعته من أماكن بعيدة، ونتيجة السفر والترحال الطويل لم تصبر الفتاة طويلا على فراق حبيبها، أو بالأحرى لم يصبروا أهلها على عزوبيتها، فزوجوها لشخص غريب عن قريتهم خوفا من أن تداهمها العنوسة. وكانوا أهل القرية يعرفون

بقصة غرام التاجر بها، فلم يجرؤوا أن يقدموا بطلب يدها، لذا تزوجت رجلا غريبا.
حين عاد التاجر من السفر أدركه أحد عماله ليخبره بأن حبيبته قد تزوجت رجلا غريبا تعرف على والدها خلال عودته من الحج..
فوقع الخبر كالصاعقة عليه، أصيب بكآبة مزمنة، ثم أخذ بنصيحة أهله والمقربين فتزوج التاجر بفتاة أخرى من أهل القرية، لينسى همومه ويعيد لذاته توازنه، أو ربما ليغيظها! أو ليعوض الفراغ الذي تركته حبيبته في حياته.

- الأمور عادية --- أين المشكلة ؟
- المشكلة بأن حبيبته لم تحتمل العشرة مع زوجها الغريب، بعد عام فقط تطلقت منه، هنا رجعت المياه لمجاريها، أزداد تعلقا بها، فقرر أن يعود لها ويطلب يدها.
- جميل جدا، إصلاح ما أفسده الدهر بحياتهما.
- المشكلة ليست فيها، إنما في التاجر الذي تزوج بعد زواجها، كيف سيخبر زوجته ويقنعها بالأمر؟ كيف سيتعامل معها؟ وهو لا يود الأفراط بها وبعشرتها.
- طالما يحب فتاته وتحبه، وسعادتهما متعلقة بزواجهما، فليتزوجا ويضعان زوجته أمام الأمر الواقع.
- وأن أبت أن ترضى؟...
- إلى حيث وبئس المصير، لتتحمل وزرها وفظاظتها.
- أترين ذلك عدلا في رأيك؟

- طالما لا يخالف شرع الله، إذا دعها تتحمل ضرة وتسكت، الله حلل ذلك.
- حتى لو كانت زوجته أبنة عمه ؟.....!!!!

هنا ساد الحديث صمتا لبرهة من الزمن، وقد فهمت الزوجة المغزى....

- ماذا تقصد؟ أأنت التاجر المزعوم؟---- لقد غششتني يا محتال أغرب عن وجهي، لا أريد أن تكلمني.

أصيبت الزوجة بالصدمة، توعكت، رمت نفسها على بساط الأرض دون أن تكلم أحدا، هلَّ الحزن على محياها رست الكآبة في خاطرها، أغشتها المفاجأة، أطبق الحزن عليها تماما، الدمع غمر وجنتيها.

بادرها سعيد بكأس ماء.

- أشربي يا عزيزتي، لا تقلقي بشأنك فمكانك مصون، أنت أبنة عمي من لحمي ودمي، ولكن أرجو أن تقدري القلب وما يهوى.... قدرك محفوظ، كل ما في الأمر لا أريد أن أغشك، لا أريد أن أعيش معك وفكري مضطرب يعزف على وتر غيرك. انا لا أريد أن أخسرك ولا أريد أن أخسرها، وقد حكمتي في الموضوع بنفسك وأحسنت حكما، أرجو أن تتقبلي الحكم عليك مثلما تقبلته على غيرك.

***

مرت الساعات ثقيلة عليها، راجعت فكرها، راجعت فترة العشرة مع زوجها، حسبت المواقف والنعرات والمشاكل وفترات السعادة التي مرت عليها، أعادت شريط زواجها مرة

ومـرتين، فوجـدت بـأن حياتهـا لـم تكـن بـالمميزة، ولـم تكـن بالتعيسـة، أدركـت بأنـه قـد جاملهـا مـرات ومـرات، نعـم أنهـا تعلقـت به وأحبته، لذلك عليها أن لا تفتقده.

أدركـت ذاتهـا لـو أصـرت علـى عنادهـا فلـن تكـن عائقـا أمـام سـعيه، صـحيح أن الحيـاة مـع ضـرة تكـون ناقصـة، إلا أنهـا أهـون مـن الوحـدة والهجـران، لـذا يجـب أن تحـافظ علـى بيتهـا وزوجهـا مهمـا حصل.

لـذا حـين اسـتعادت وعيهـا، رضـخت للأمـر الواقـع، قالـت لـه معتذرة ومباركة:....

- نعـم أنـت أبـن عمـي، أنـا أدرك أنـك تزوجتنـي دون محبـة مسـبقة، تزوجتنـي لأملـئ فـراغ تشـعر بـه، خـلال عشـرتي معـك لـم أكرهـك، ولـم أكـن أشـعر بـأني الزوجـة والحبيبـة، لـذا أقـر لـك وأيـد مسـعاك فـأني لا أود أن أخسـرك لأنـي أحببتك ولا أريد أن أعيق سعادتك.

قبـل راسـها وضـمها إلـى صـدره، وقـال لهـا: أنـا أيضـا أحبـك لكنـي أيضـا أحبهـا، لـن اسـتطع مقاومـة ضـعفي أمـام عصـفها، أنـت زوجتـي وحبيبتـي، وهـي خليلتـي وعشـيقتي، لـن أفـرط بكمـا، لـن أتخلى عنكما مطلقا.

أنهـى سـعيد مشـوار زوجتـه والعقـدة الوحيـدة التـي كانـت أمامـه بيسـر مـا جعلـه يسـرع فـي غرضـه ليخبـر بثينـة بمـا توصـل إليـه مـع زوجتـه، وقـد وجـد فـي زوجتـه (أبنـة عمـه) أفضـل طيـر مرسـال إليها.

أولا: لبناء جسر محبة بين الزوجتين.

ثانيا: إعطاء زوجته ثقته الكاملة ليشعرها بمكانتها في قلبه.

لـذا طلـب مـن زوجتـه أن تقـوم بـدور الطيـر المرسـال، ليشـركها ويحسسـها بـأن لهـا أهميـة كبيـرة فـي حياتـه، علـى الـرغم مـن أن هـذه المهمـة تـنغص أحاسيسـها ومشـاعرها، إلا أنهـا وافقـت علـى القيـام بالمهمـة لتثبـت لزوجهـا محبتهـا الصـادقة لـه، لـتحفظ مكانتهـا فـي قلبـه، فهـي لا تريـد أن تجعـل ذاتهـا كأثـاث البيـت بعـد زواجـه من بثينة، لذا قامت بالمهمة على أحسن وجه وبرعت.

تـم فـتح الأنفـاق والشـوارع والجسـور بينـه وبـين بثينـة والاتصـال عبـر خطـوط القلـب والفكـر والظـن والنـداء والهـواء ليرسـخ الأمـر في ذهن المحيطين به والمتربصين ببثينة.

وبعـد انتهـاء فتـرة العـدة، [حيـث إذا كانـت المـرأة تحـيض فـلا تعتـد بالأشـهر، بـل عـدتها ثـلاث حيضـات فتخـرج مـن عـدتها بـالطهر مـن الحيضـة الثالثـة بعـد الطـلاق، لقولـه تعـالى: {وَالْمُطَلَّقَـاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } {البقرة:228}.

وإن كانـت المـرأة لا تحـيض لصـغر أو كبـر سـنها أو لمـرض، فعـدتها ثلاثـة أشـهر، قـال تعـالى: وَاللَّائِـي يَئِسْـنَ مِـنَ الْمَحِـيضِ مِـنْ نِسَـائِكُمْ إِنِ ارْتَبْـتُمْ فَعِـدَّتُهُنَّ ثَلَاثَـةُ أَشْـهُرٍ وَاللَّائِـي لَـمْ يَحِضْن{الطلاق: 4}.].صدق الله العظيم.

تـم زفافهـا بمباركـة أهـل الطـرفين والزوجـة الوفيـة دون بهرجـة حسـب طلـب بثينـة، أنمـا أقتصـر الفـرح بمباركـة الأهـل والأصدقاء فقط.

دخلـت بثينـة القفـص الـذهبي الـذي جهـزه لهـا سـعيد، لقـد سـعد بقـدومها وروحهـا وطلتهـا. بـدخولها البيـت؛ كسـرت مـرآة بؤسـه، جـددت لحظـات سـعادته، جعلـت الأضـواء تشـرق فـي سـمائه. لقـد تغيـرت طباعـه، صـار أكثـر حيـاء وحيويـة وطيبـة. أضـحت

الفرحة جزءا من ممتلكات البيت، أينما تذهب تجد لإشراقتها ومضة. أليست هي من أضاع في خضمها سنين عمره دون أن يتجرأ أن يقف أمامها ليعترف بحبه لها؟ أليست هي من شغلته زمنا دون أن يهدأ له بال؟ كانت قد كورت فكره بالعقد، أحرقت قلبه بلظى البعد.

نعم هي الغزالة الهيفاء الرشيقة، تلك الفاكهة الغريبة، الحورية التي حلم غرزها في جنائنه.

(الحال من بعض) كما يقول المثل، فهي لم تكن أفضل حالا منه، كانت تجربتها قاسية، غيرت من مفهومها للحياة، عرفت بأن الحياة ليست جولة سياحية أو تجربة ثقافية، أنها قرار واستقرار.

تلك التجربة المرة، والتي عكرت مزاجها، جعلت الزواج دون رغبه كالعبث بالمياه الآسنة، ينفث منها روائح تزكم الأنوف، لقد جردتها التجربة المريرة من الطاقة والحيوية، من الفرفشة والضحكة. أنستها مفاتنها واهتمامها بتسريح شعرها وارتداء فساتينها السندسية والمخملية البراقة، جردتها من طلاء وجهها بمسحة خفيفة من المكياج والديرم، جعلت حياتها صبغة عادية خالية من الإثارة.

ذلك ما جعلها تعتقد بأنَّ زواجها الثاني مجرد تبديل أشخاص في حياتها، كي تسير الحياة وفق روتين الطبيعة، من أكل ومشرب وأنجاب واستقرار، دون أن تزج طاقة إضافية تجعل أيامها كرنفال.

ولكن --- لا يمكن الحكم على الإنسان مقدما، لابد أن يمحق بتجربة قبل أن تحكم عليه، فمعدن الشخص يبان في وقت

الأزمات، في السفر والحرب والكوارث والزواج، لذا ارتأت أن تصبر عليه لمعرفة مكنونه.
في زواجها الثاني؛ شعرت بأنها تعيش في بيت زجاجي واهن، ترى من خلاله محيط العالم الخارجي وما يحيط بها من شجون وعيون، في الوقت الذي يداهمها خوف من أن تكون تجربتها الثانية لا تختلف عن الأولى سوى بالشكل.
الخوف من أن يدوش واقعها الزجاجي حجر طائش، يحيل بيتها لهباء، لا زالت صدمة أمس عالقة بذهنها، التأهب جعلها تحيط ذاتها بصمت يعزلها عن محيطها؛ يعزلها حتى عن زوجها الذي يكن لها محبة غير معهودة.
تلك التجربة على الرغم من تشمعها إلا أنها بقيت محفورة في الذاكرة، عدم التوافق الفكري والنفسي والبخل والعناد ووووو الخ من عقد كانت قد محت أثر الطيبة والنية من مخيلتها، كتمت على أنفاسها، ما عادت ورودها تنتح عبير سعادة في الأجواء.
لذا فهي بحاجة إلى زمن أطول لتنقه النفس، لتعود لسابق عهدها، نعم هي تبحث عن الفردوس، والذي لا يبتعد عنها سوى خطوة، لكنها بحاجة إلى ثقة تزيح عن ذهنها أوهامها.
أحيانا تشعر بذاتها وكأنها لم تتحرك خطوة نحو سعادتها، وكأنها تحتاج لوسط يعينها على جز كل مخلفات زيجتها الاولى، وخاصة هيَّ تعيش في وسط يتربص بها، لا يضيره أن يصب الزيت على النار ليستمتع بطقطقة قصب سعادتها.
صارت تتصرف بحذر شديد وبتمعن كي لا تترك خلفها شائبة؛ حتى زوجها بات يشك بحبها وولائها له، وكأنها ليست

تلك الفتاة التي حام حولها وأحبها، كأن زواجها الأول قد قتل رغبتها به.

***

دخل الشك في قلب الزوج دخول النار في الهشيم. يا ترى؛ لم تزوجته أن كانت ليس لها رغبة به، هل تزوجته لمجرد كسر مرآة العزوبية؟ أم لتحافظ على سمعتها من خدش الزمن؟.....

لا لا أكيد هناك سر أحال فكرها إلى هذا البرود.

لذا ود أن يضعها تحت محك التجربة، ليكتشف مكانته في قلبها أن كانت محبتها صادقة أم مجرد نزوة.

قرر أن يوهمها بلدغة ثعبان ميت دسه في فراشه، كان قد أبرع بتمثيله المشهد، اغشي عليها حين رأته منهك دون حراك، صرخت بأعلى صوتها تصيح

- يا ويلاتاه ! وا حبيباه!..

غلبها البكاء والنعي والولولة وهيجان غير طبيعي. أنشدت تطرب باسم أبنه عامر في نعي حزين.

قم وأشفع لأبيك يا عامر
مات ضحية ثعبان غادر
أرى الدنيا ظلمة من بعده
كأنها لبدت بغمام جائر

بعد أن انشدت نعيها بحزن وألم وبكاء شديد، فاق من غيبته وهو فرح مسرور، التمس محبة بثينة له، فهي الدنيا بأسرها، احتضنها، قبلها من يديها ورأسها وهي في وضع مبهوتة من سلوكه الارعن، منزعجة من تجربته، غير مصدقة بأنه لا يدرك مشاعرها تجاهه.

تلك الملاطفة لم تروق لها، لذا جردت نفسها منه، لبست عباءتها وفي وجهها جهامة قل نظيرها، وفي نظراتها زعل شديد.. قالت له وهي تغادر البيت لدار أبوها:....

- ليست بثينة من تجرب بالوسائل الرخيصة، كان الأجدر بك أن تعمل بإحساسك ومشاعرك كما أعمل، والله لن أعود إليك حتى **ينطق العود والحجر!**.
- أأنت مجنونة **!** وكيف ينطق العود والحجر **؟**

لم تطرق له سمعا، غادرت البيت متوجهة لبيت أبوها، تاركة إياه يدور في دوامة لغز العود والحجر، دون أن يعرف تفسيرا له، نادما على فعلته الرخيصة وضعف تقديره.

بعد أن تيقن من أنها مغرمة به، زاد شوقا وهيافة بها، بات الشغف يغلي في قلبه، صارت له كـ فوز بالنسبة للأحنف.

ارسل المراسيل والأحباب والاقارب لثنيها عن عنادها، فلم تتنازل عن شرطها إطلاقا. لن تعود إلا بذكاء وفطنة، لكي تأمن بأن الذي يودها يستحقها، لا موطئ للرأفة في جدول حياتها.

طالت مدة غيابها، ذبل جسده حزنا عليها، أضحى كجذع شجرة خاوٍ، اختزلت صفاته بدبق الكآبة وخشونة الطبع. أضحى بين القرى كريح يزأر في العراء، لا هدف له سوى معرفة لغز العود والحجر لإرجاعها، دخل مرحلة الهوس والجنون، صار يدور في الأرياف والمدن بحثا عن اللغز.

رأفت بحالته زوجته الأولى، تعنت إلى ضرتها، راجية منها أن تعزف عن خصامها دون جدوى.

مرت الأيام والأشهر، فلم يكل سعيه، لم يشذ حبه، صار يكنى بالمجنون الطريد، قاصدا العرفاء والحكماء، عانى ما عانى، شاق ما شاق، حتى كلت جدمه وضعفت صحته.

ذات يوم مرت به عجوز تائهة في مسراها، سالته أن يدلها إلى ناحيتها. فأخذ بيدها، أوصلها لمبتغاها، حينها سألها عن لغزه المحير إن كانت لها دراية بمعناه...

- يا حاجه ... متى ينطق العود والحجر؟
- ينطق العود حين يشكو الوتر للوتر، وحين يدق الحجر بالحجر ...
- حين إذ صاح بصوت عال .. صح لسانك! يا حاجة، حين يشكو الوتر للوتر أنها الربابة، وحين يدق الحجر بالحجر أنها الرحى.. قبل راس العجوز.... ثم صاغ شعرا وصار يغني على نغم الربابة قرب دارها.

جودي يا روح لوصل المحب جودي
غص القلب ببجاي والرحى خدودي
يا عود بسك حزن ونوح
جزعت شجن الربابة، بالله متى تعودي

حين سمعت تلك الأبيات والحزن ينزف من الربابة، رق قلبها ولان إحساسها، زادت شوقا ولهفة لغمر حبيبها بمحبتها، حينها علمت بانه قد عرف قدرها وحدودها كزوجة، ذلك هو مبتغاها.

بغياب المسببات، عادت مرتمية بأحضانه، سعيدة، في الوقت الذي به أعطته درسا في الإحساس والمشاعر...

*****

المحبــة هــي اللعبــة الوحيــدة التــي يشــترك فيهــا اثنــان، بحيــث يتعادلان في المكسب والخسارة.

---

* فوز حبيبة الشاعر الأحنف بن قيس

* مــن مــوروث الوالــدة العزيــزة طيــب الله ثراهــا وأدخلهــا فســيح جناته.

المقصلة*

كانت جزيرة العين مملكة عظيمة، تلك التي قصدها التاجر الأمين في رحلته الأخيرة، لهدوئها وسحر شواطئها وكثافة اشجارها. وذلك بعد أن كثرت أمواله وكلَّت أقدامه وكره اسفاره، قرر أن يتزوج منها ويستقر فيها.

قضى حياته أشبه بالرحالة أبن بطوطة، أحبَّ المغامرات بحثا عن النادر والمميز من التحف، أثرى فكره بالمعلومات والثقافات، عرف الغريب من عادات وتقاليد الشعوب التي مر عليها. جمع ما جمع من غنى النفس والمال، حتى التمس ما ينقص ذاته من سعادة وراحة البال، فالرجل بحاجة لامرأة تمتص همومه وتشاركه أحلامه ومستقبله.

وجد في جزيرة العين غايته، المناظر الخلابة جذبته، جبال شاهقة كأنها ستائر خضر متدلية من جوف السماء، تحيطها شواطئ زرقاء. يرفأ بها رمل جذاب بلون الاشتياق، تلك الأجواء أسَرَّتْ هواجسه، أغرته بشغف الحياة، حينها كان قد تجاوز الأربعين من العمر، لذا قرر الاستقرار وكتابة مذكراته.

لعشقه الأزلي للبحر؛ صار يتردد إلى شاطئ في كل مساء، ليستمتع بمناظر السفن ورائحة البحر وصفاء الرمل، فالبحر شكل خطوط حياته وذكرياته، بل غدى عشقه الأزلي، فصار يصرف وقته وينعش فكره في صيد الأسماك والسباحة والاستجمام تحت أشعة الشمس الدافئة، فهو يهجس بذاته كطائر النورس، لن يستطيع أن يبتعد عن شاطئ البحر....

وهو يكتب مذكراته ومغامراته، كان قد تذكر أول وجه جذب انتباهه، وأول تحفة أحتفظ بها، أول بذرة عشقٍ غرست في قلبه شرارتها، أول قبلة هزت اركانه، أول رحلة قام بها...الخ، ذكريات عرجت به لفترة المراهقة مع أبنة الجار، تلك السمراء الفاتنة بشعرها الأدهم الممـوج على كتفيها كظلال الشجر، ذات عيون المها، الهيفاء، المزدانة بقوام ممشوقة كالخيزران.

كانت أول من لفتت أنتباهه، حين طلبت مساعدته في توضيح فكرة فيزيائية عصت عليها، استغل وجودها في بيته، لان لها، أحتضنها، طبع قبلة على خدها؛ لتخر بين يديه خجلا وحياء. لم يقاوم فيض حسنها، ارتعشت أوصاله، تاه في لغز المسألة، فدنى من أريج خدها.

ارتعدت منه، قاومت إعصاره، فلتت من قبضته وشمس عينيها مغشية بغيوم الخجل. هربت بعيدا، تاركة جمرة القبلة تصلي الخد وتكوي الشفاه بلظى النار. أحست بخدش في حيائها، في الوقت الذي به اسرت له نظرة أعجاب مغشية بابتسامة شفيفة، كان ذلك قبل أن تخرج من بيته، تاركة كتابها بين يديه.

منذ تلك الحادثة لم يضطرب قلبه بإشارة حب صادقة، صار حنينه يصب في رحم تلك الأيام الخوالي، وكأنَّ الوحدة هيجت نيران الأمس، فحركت أمواج تيار الصبا الراكدة. كان قد أضاع عمره بين مد وجزر السنين، وهو يشتط كالموج بين المركب والساحل.

بات ينفث شجون حياته زفير حسرات في دخان سيجارته، لترسم له هالات بؤس في لوح القدر، وكأنَّ السنين عاقبته على هدر الفرص بين جني المال والأستغفال.

تـذكر أمـه حـين كانـت تخـيط لـه ثوبـه، وحـين تجهـز لـه فطـوره قبـل ذهابـه للمدرسـة، تـذكر والـده الـذي علمـه فـن التجـارة حـين كـان يرافقـه فـي رحلاتـه المكوكيـة بـين الشـمال والجنـوب، حتـى أصبحت له دراية كاملة بالمشتريات ومواسمها.

تلـك الآفـاق علمتـه مهنـة حـرة مجـذرة، شـحذت فيـه همـة الـرزق، علمتـه أن لا يرتكـز فـي ظـل ولا يسـتكين علـى رزق، أينمـا يحـل يسـتطيع أن يقـرأ الأوضـاع بفطنتـه وإلمامـه ودرايتـه، هكـذا بسـط نفوذه خلال مراحل عمره.

أسـتغل هوايتـه فـي الجزيـرة بالتجـارة الحـرة وصـيد السـمك فـي اوقـات الفـراغ، كـي لا يغلبـه الـروتين فتمضـي أفكـاره فـي رواج تلك الموجات المتعاقبة من سقم السنين.

بعد اسـتقراره أخـذت العاطفيـة تشـل تفكيـره، لا بـد مـن إمـرأة تملـي عليـه حياتـه، تضـفي علـى عمـره البـاقي لمسـة سـعادة وحنـان وراحـة بـال، فـي الوقـت الـذي بـه قطـار العمـر يجـري فـي اسـتقامة دون توقـف، أضـحى يبحـث عـن سـيدة تعينـه علـى وحدتـه. هكـذا صـار يـدق مسـماره عزوبيتـه فـي لـوح كـل سـيدة تصـادفه مـن اللاتي يستجممن على شاطئ البحر.

ذات يـوم ومـع إطلالـة المسـاء، ودون موعـد مسـبق، التقطـت هواجسـه صـورة فتـاة غايـة فـي الرقـة والجمـال، بانـت مياسـم حسـنها تتـراقص فـي وجههـا وهـي مبلولـة بميـاه البحـر. حوريـة بـدت لـه بخصـرها الأهيـف وقوامهـا الرشـيق مـن تخـرج مـن البحر، كرستال شعرها يعكس خيوط الشمس من على الكتف..

كانت ترتدي ثوبا براقا من لون البحر، يطابق لونه عينيها الواسعتين الفيروزتين، تهجس بالسحر متوهج في وجهها، يحكي قصة كبرياء يليق بها، ويوائم مشييها وجميل قوامها.

ترى من تكون تلك الفتاة؟ أو من أي أرض بزغت؟ كيف يمكن أن يصلها، كيف يوصل إعجابه لها؟ تلك التي ملئت فضاء عينيه، وشغلت خواطره وفكره، كيف سيكون شكل الرغبة بعد أن ينفض الغبار عنها؟.

لمْ تمنعه سنين عمره الأربعين من أن يفكر بفتاة تصغره عقدا من الزمن، هذه فرصته المواتية، ربما هي الأخيرة في مجال العمر.

علق صورتها على جدران ذاكرته، مد إليها نظرة إعجاب؛ أستحوذ على معانيها، أقترب من وهج النار وعيناه لا تبرح قوامها الرشيق، تحركت عن موضع السكون، هجست بزفرات آهاته تنفث من عطب فتيل صمته.

أحست بوجوده، أدركت سنارة صيدها قد تلقفته، وأدرك سنارة صيده تلقفها، لم تهمله في قرارة نفسها، دخل أفق مزاجها، أنها لعبتها التي تجيد فن ادارتها.

ترى من سيصطاد من؟

يا ترى! ما ذنب الفتاة أن كانت جميلة؟ وما ذنب الشاب أن أسّرَ بفتنتها؟ الله قد خُلق الأنسان ضعيفا، تحكمه الأهواء والظروف، تحركه موجات الرغبة حسب إيقاعها ودفقها.

صار يعبر عن نفسه بافتراضات وحجج تبيح له سلوكه في تعامله مع الآخرين، وتضفي على مبادراته القناعة، أضحى يأخذ بزمام الأمور إرضاءً لغوايته.

لم تهزه فتاة من قبل كما هزته هذه الحورية، ربما لسلطان العمر يد في خلق قدره، ربما للمعرفة والثقافة التي أكتسبها فيض في هذا الهيجان الغير طبيعي الذي اجتاحه، ربما تغير شعوره بعد استقراره....الخ. هكذا نصب خيمته على شاطئ الصبر، منتظرا سفن أحلامه أن ترسي في مرافئها.

تلك الحورية شغلت فكره، أرهقت ظنونه، كيف السبيل إلى جوهرة تتلألأ أمامه، كيف يرفع الحواجز ليجعلها رفيقة عمره وهو لا يمتلك مفاتيح حقيقية لقفل قلبها المقفر؟ تلك المحاور الملبكة شغلته، جعلته يخطط بإمعان لإدراك سبيله إليها.

مضى يعد سنارة صيده، لا بد له من خطوة جريئة، ومن وقفة جدية تجيز له دخول معبد الشمس قبل أن تغرب الشمس من عالمه. وإلا فلن يرى النور في هزيع صمته.

تلك الحورية أمست تأتي إلى الشاطئ كل مساء، لن تغادره حتى تغرب الشمس، كأنها لا تأتي إلا لتغويه. في المقابل كان ينتظر قدومها وكأنه قد عرف غايتها. كل يوم كانت تجلس بذات المكان، تتأمل أن يشاغلها، أن يحرك موجها؛ حتى هدنت الأشجان وعرف كل غاية غريمه.

بعد نظرات متبادلة ابتسمت له، اوقدت شرارة عاطفته، مسحت دكنة حيرته، فاجأته كرصاصة خرقت حواجز قلبه، أبهجت ثنايا فكره، كشطت همه من قيعان ظنه.

لم يتوقع أن تبتسم له الحياة بسهولة، لم يستطع مجاراة عصفها المفاجئ، الخجل طاف في مرفئ العيون. لحظات حرجة، أنه الحب، لابد من ردة فعل... انبثقت عنه ابتسامة خجولة، أرسلها بلطافة العاشق إلى حمامته الواقفة على وتد أحلامه.

قد تكون ابتسامتها عابرة، لكن جمالها السادي المراق في ملامح الوجه ليس عاديا، لابد من عمل جدي يبجل قدرها، يشعرها بقيمة نفسها....من خلال مراقبته لها اكتشف بأنهما يشتركان بصفة الوحدة، كلاهما اسير همه. ذلك السكون العائم لا يمكن أن يدوم، لابد من حركة تعطي للمياه الراكدة روح في الحياة... إذا لا بد من خطوة جدية وجريئة ليضع النقط على الحروف.

تقدم منها بخطوات مهزوزة، يحمل في يده وردة بيضاء، تعبر عن بياض قلبه، وصدق نيته، أنها عربون المعرفة. كان صامتا، لكن تعبير وجهه فاضت بما يجيش به قلبه، ترجمت كل ما يود أن يقوله لها.

أخذت الوردة، وضعتها على أنفها، شمتها! كأنها بفعلتها تلك أجهشت على هاجس الخوف والخجل الرابض في جوفه. تلك الحركة بثت موجة حبور في أوصاله، صمت رهيب ساد الأجواء، لم يسمعا خلالها سوى نبض قلب الآخر.

جمع شتات نفسه، عرفها باسمه وعمله، عبر لها عن اعجابه بها، كلمها عن مغامراته ورحلاته وتجارته. وعدها بهدية قيمة مما يحتفظ من آثار قديمة لإحدى الأمم.

بادلته المعرفة، بادلته المشاعر، دار بينهما حديث سلس شيق، لم تنحرف عن خانة الأعجاب والثناء، كلمته عن صباها، واهوائها، سرّتْ به وسرّ بها، تعانقت النظرات، تصافحت الأيادي، تراخت النفوس وانبلجت لواعج الشوق والهيام.

تكررت اللقاءات في ذات المكان. في كل مرة يزداد بها أملا وإعجابا؛ حتى أرتقى سلم العشق والغزل.

نثـر لهـا الأشـعار، شـرح لهـا رغبتـه، أسـتطرق فـي خيلائـه، عصـفت بـه الأفكـار إلـى جنـة الفـردوس، أنـه قريـب جـدا مـن أن يتلقف حظه وهو يراها سراجا في الأفق.

مضـت أمسـياته علـى مضـي شـهر مفعمـة بالرجـاء، فـي كـل لقـاء يغرقهـا بمشـاعره وهـداياه، يحكـي لهـا قصـة مـن مغامراتـه العديـدة مـع الشـعوب، راقـت لـه استأنسـت بحديثـه ورأيـه. توضـحت دلائـل الأعجـاب المتبـادل. لملـم شـتات ظنـه، وضـبها فـي سـرادق قلبـه، عرض عليها الزواج!!... لكنها مهلته قائلة له:... ..

- لازلنا في بداية المشوار، نحتاج لوقت أطول.

لـم يسـألها عـن اسـمها الحقيقـي، لكنـه أطلـق عليهـا أسـم وردة، وأميرة، حسب ما يروق له وما يروق لها.

وفـي أحـد الأيـام البـاردة جاءتـه تمشـي الهوينـا، وفـي يـدها وردة جوريـة حمـراء! يفـوح منهـا عبـق أنفاسـها الشـذي. قـدمت لـه وردتهـا بامتنـان وحنـان وابتسـامة سـاحرة. ثـم حضـنته ثـم قبلتـه مـن خده قائلة له:..

- هـذه الـوردة قطفتهـا مـن حشـا الفـؤاد، فيهـا عبـق مـن أنفاسـي، هـي دلالـة علـى صـدق محبتـي لـك وصـدق إحساسـي. أحـتفظ بهـا قـدر الإمكـان، قـد أغيـب عنـك فتـرة زمن، لكني سأعود إليك.

بفعلهـا صـعقته، هـزت كيانـه، تركتـه كـالطير المـذبوح يرتجـف فـي مكانه، أحمر وجهه، أغدقت ظنونه بأمل باهت.

قدر ظرفها، قبلها، تركها تنسلت من بين يديه لفيض الزمن.

- هل فكرت بزواجنا؟
- عند عودتي سنقرر ذلك...

مضت الأيام جزافا، ذبلت الوردة، ولم يهل قمر العيد... ترى ما الذي منعها من العودة؟ لِمَ غاصت في غياهب الجب؟ هل للوردة الحمراء مغزى بذلك؟ أم ترى عائقا ما منعها من حضورها؟

بغيابها اسودت الدنيا في نظره، حتى البلابل والعصافير ما عاد يسمع لها تغريدة أو زقزقة في ذاكرته. كيف السبيل إلى وصلها؟ فهي لم تترك له عنوانا أو دلالة...

تلك الأسئلة بقيت تدور في مخيلته، بات يبحث بين ذكريات الأمس عن خيط دلالة يصله بها، لم يجرؤ أن يسال عنها الناس، لم يكن قد تعرف على من يثق بهم.....

لكنها في الحقيقة الامر كانت بشخصها معروفة لكل أهل المملكة، هذه الحسناء هي عشيقة الأمير، أسطورة خيال في ألسنة الناس، لذا لم يقترب منها بشر.

كانت في خلوتها تنزل للبحر، لتطرد الوحشة التي تلازمها وبالذات حين يكون الأمير منشغلا بأمور المملكة أو برحلاته البعيدة.

خلال غيابه كانت تشعر بالوحدة، فتمضي للاستجمام، أو السير بين ثنايا الأشجار الباسقة، لتستمتع بتغاريد العنادل، وزقزقة العصافير. حين شعرت بأن شخصا ما يتبعها ويقترب منها، فرحت بذاتها، أرادت أن تكسر مرآة الوحدة والروتين التي تصاحبها. لترى نفسها بمرآة غير مرآة الأمير، فالمرأة تعشق من يفتتن بها ويتغزل بها.

بعد أن أدركت بفراستها بأن هذا الشخص غريب عن المملكة استمالت إليه، حيث إيحاءات الغريب تكون صادقة ونبيلة. فأن

أهـل المملكـة لا يجـرؤن أن يحادثوهـا أو يسـايروها، فللأميـر عيون ومجسات في كل مكان وأن لم يكن موجودا بذاته.
و قـد وجـدت فـي التـاجر؛ فرصـة التنفـيس عـن الـذات وزهـق الوحـدة التـي تكبلـت بهـا حتـى عـودة الأميـر مـن مشـوار سـفره. أنهـا مجـرد لقـاءات بريئـة لا يتخللهـا مكـروه، وفرصـة أن تثبـت للأميـر بـأنّ الخطـر يحـيط بهـا إذا مـا تركهـا خلفـه عرضـة للوحـوش، ليهـتم بها أكثر.
(أنَّ كيدهنّ عظيم) صدق الله العظيم.
بـدأت الإشـاعات والنميمـة تنتشـر بـين ألسِـنَة النـاس خاصـة هـؤلاء الـذين يشـعرون بـالغيرة والحسـد منهـا. أضـافة لتعقـب المخبـرين الـذين يعملـون سـراً وجهـرة فـي خدمـة الأميـر، ينقلـون لـه كـل صغيرة وكبيرة من أمور المملكة وما يحدث بغيابه.
وبعـد أن اكتملـت عناصـر القصـة، وجمعـت فصـوص المسـبحة، وبعـد أن عـرف القاصـي والـداني بقصـة الأميـرة والتـاجر الأمـين، عـرف الأميـر تفاصـيل القصـة مـن مخبريـه. ولقطـع ألسِـنة النـاس والأحاديـث المروجـة التـي تـدور حـول أميرتـه، أتخـذ قـراره بقطـع رأس الأفعـى التـي تجـاوزت علـى حبيبتـه، حتـى لـو كانـت علاقـة بريئة لتخرس الألسن.
فتلـك العلاقـة تعنـي اعتـداءه وتجـرؤه علـى أمـلاك الأميـر، فالأميرة هيَّ جزءا من ممتلكات المملكة.
القـت الشـرطة القـبض علـى التـاجر، سـحل فـي الطرقـات، أهـين. أسـتهجن العمـل، أسـتغرب الأمـر، سـاقوه إلـى قاعـة المحكمـة، دون أن يعلـم سـر اعتقالـه، حكـم القاضـي عليـه بالإعـدام باسـتخدام المقصلة لتعدية على ممتلكات الأمير، ليكون عبرة لمن أعتبر.

تم تحديد يوم القصاص، دعوا عامة الناس ليرعووا.
إذا نهايته قد أذنت، لم يكن يدرك بأن تلك الجميلة تخبئ في ثناياها سر موته، لم يدرك بأن الوردة الحمراء كانت تمثل إشارة للدم، حظه السيء أوقعه في شرك الأميرة. وللأمير الحق في أن يتخذ قرارا صارما بحقه، وإلا فلن يجد من يهابه أو يحترم سيادته ويلتزم بقوانين مملكته.
وفي يوم القصاص حشد الناس، فمنهم من ترحم عليه، ومنهم من كال له السب والشتائم متعاطفين مع الأمير. فهذا هو أميرهم! كيف لا يؤيدوه.. يجب أن تصان حقوقه وإلا ستعم الفوضى.
قبل أن يُشرع الجلاد بإعدامه! سألوه عن رغبته الأخيرة، بحسب العرف السائد في المملكة.
قال: أريد مقابلة (ورد).
سألوه عن أي ورد تتكلم.
قال: أريد مقابلة الأميرة لدقيقة واحدة فقط!
تم استدعاء الأميرة التي وقفت أمامه وقفة الظالم أمام المظلوم، القيد حز ساقيها وهي تقف أمامه مذمومة. دار حوار صامت بينهما. عاتبها عتاب ميت لا يعرف أنها الأميرة. بحسرته قال لها: أية سعادة ستشعرين بها، وسأكون نديم كأسك وكوابيس أحلامك.
كأنه لف حبل المشنقة على عنقها، فلابد لها ضمير..
حينها نزلت المقصلة لتقطع رأسه، نكست رأسها، صار الناس يكنون الأميرة الحسناء بالمقصلة.

الوفاء

ذات يوم استفاقت هيونا على وقع حلم كظيم، ترك أثرا بليغا في نفسها، حلم أسعدها لحظة وأحزنها ساعات، كان جميل بوقعه وأحداثه، بليغ بثقله ومضمونه، ذكرها بفترة طفولتها، قبل أن يجبرها الظرف اللعين على ترك دارها مرغمة، لتعيش أسيرة حزن ووحدة مقيتة في الميتم.

ما أن جلست في سريرها حتى أجهشت بالبكاء، فرشت ملأة الحزن على محياها، فاضت عيونها بسيل من الدموع، أنتبهنَّ زميلاتها على نحيبها، آلمهنَّ شجنها وآهاتها؛ تجمعنَّ حولها، واسينها، الذهول يسيطر عليهنَّ دون أن يعرفن سبب شجييها، استفسرنَّ منها عن مصابها:...

- يا هيونا – ياهيونا اخبرينا لِمَ تبكي، هل أصابك مكروه؟

بعد أن هدأت أعصابها وعادت لطبيعتها؛ شرحت لهن قصة ظرفها قبل أن تأتي للميتم وهيَّ تعيش سعيدة برفقة والديها وكلبها الأبيض، في بيت كبير في ضواحي قريتها. قبل أن يغير عليهم القدر وجهة حياتها ليختطف والديها من بين يديها، وذلك حين انزلقت عجلتهم ذات يوم عاصف ثلجي، لتنحدر بهما العجلة من مرتفع تلة إلى وسط بركة ماء، فأودت بحياتهما..

حينها كانت عائدة من المدرسة برفقة صديقتها ماغي، الصدمة كانت كبيرة عليها، اذهلتها، خطفت والديها من بين أيديها بلحظة غفلة، لم يكن لها أقارب أو أخوة يكبرونها ليعتنوا بها، لذلك دفعها الظرف إلى ترك البيت والعيش في الميتم.

رغم أنها كانت صغيرة دون العاشرة، ألا إنها بقيت محتفظة بذاكرتها لبيتها وكلبها ووالديها، مشدودة الخواطر لماضيها

الـذي يـذكرها بطفولتهـا وقريتهـا وصـديقتها فحسـب؛ أنمـا بكـل شـيء جميـل كـان يشـغلها ويسـعدها. لأنهـا كانـت وحيـدة دون أخـوة، كانـت مدللـة، رفيهـة، تكيـل محبـة خالصـة لوالـديها، مثلمـا يكيلان لها ذات المحبة.

لـذا كـان وقـع الحلـم عليهـا شـديدا، شـتت ذهنهـا، جـنح بخيالهـا بعيـدا إلـى عمـق الماضـي، إلـى سـعادة أمـس وهـي تنظـر مـن النافـذة للخضـرة المفروشـة فـي محيطهـا، تـتمعن فـي الأزاهيـر المختلفـة وهي تفترش محيط حديقة الميتم.

كانـت قـد أغرتهـا كثيـرا زهـرة الأوركيـدا، تلـك التـي ذكرتهـا بوالـدتها وهـي تعتنـي بهـا فـي حديقـة البيـت، أهتمـت بهـذه الزهـرة اهتمامـا جليـا، اعـادت لهـا شـيئا مـن ذكريـات أمهـا، تسـللت إلـى ولعهـا بتلـك الزهـرة. لـذا مـا أن وقعـت عينيهـا عليهـا؛ حتـى شـدتها الـذاكرة إلـى اهتمـام والـدتها بهـا، وكأنهـا تخاطـب والـدتها باهتمامها بالزهرة وفاء لها ومحبة بها.

لـذا اعتنـت بهـا منـذ يـوم دخولهـا الميـتم، لأنهـا تـذكرها بوالـدتها التـي كانـت تحـب هـذ الزهـرة، تعتبرهـا مـن ممتلكـات والـدتها، لـذا أصـبح بينهـا وبـين زهـرة الأوركيـدا ألفـة ومحبـة، صـارت تزورهـا باسـتمرار كـل صـباح دون غيرهـا مـن الأزاهيـر. دفعتهـا الغريـزة، العاطفـة، تسـقيها، تنظـف سـيقانها، تشـعر بلونهـا فيـه صـبغة مـن روح والـدتها العذيـة.. فيمـا وجـدت الزهـرة فـي اهتمـام هيونـا بهـا لمعـة وطـراوة، كأنهـا أضـفت عليهـا سـكينة وخيـال، أتحفتهـا بشـذى أنفاسـها وعبيـر إحساسـها، فبـدت تـزداد ثـراء فـي الحسن والالق مع الأيام.

خـلال سـرحانها بأرجـاء حديقـة الميـتم، عبـر النافـذة المطلـة عليهـا مـن غرفتهـا، أخـذها الخيـال بعيـدا عـن أمـاكن تواجـدها، إلـى مـا كانـت عليـه قبـل تلـك الحادثـة الأليمـة، كانـت لاتـزال واقعـة تحـت تـأثير سـطوة الحلـم. حينهـا تـذكرت صـديقتها مـاغي، التـي كانـت لا

تفارقها في طفولتها، يلعبان معا، يشتركان في تبادل الآراء، يمضيان معا للمدرسة.
في تلك اللحظة خالها الشوق لزيارة ماغي، تخيلتها تمرح وتركض معها بين أغصان الأشجار والحشائش المبثوثة في حديقة الميتم. صارت تلاحقها بنظراتها، تناجيها بروحها من خلف النافذة، تخاتلها، طاف بها الخيال لأعماق الأمس، دب في أوصالها رعشة سكون مفاجئة، تعلقت بذلك الطيف الذي يغشي بصرها، في مساحة الخضرة الممتدة على مدى البصر حول قريتهم وسكناهم.
خلال شرودها وهي تتفحص الأمكنة ذات اليمين وذات الشمال بعينيها الشهلتين؛ افتقدت أثر ذلك الطيف، تلاشت صور ماغي من الأفق، يا ترى أين ذهبت ماغي.. أين اختفت؟ .. صارت تناجيها بروحها، بنظرها: أين أنت يا ماغي؟... لم اختفيتِ عن بصري؟..
لم تجد جوابا لإرهاصاتها....
مرت اللحظات سريعا، عادت لسكونها، لم تجد استجابة تطرق أذنيها، فلم يكن ذلك الهوس سوى طيف خيال تراءى لها حقيقة...

خلال مكوثها في الميتم عبر سنة كاملة، كانت ماغي تواظب على زيارتها مع بداية كل شهر، لكنها منذ شهرين لم تزرها، تخلفت عن موعدها، ذلك ما أقلق هيونا، ترى ما الذي منعها من الحضور، ما سبب تخلفها؟ بمن شغلت ذاتها؟ لِمَ لَمْ تتصل بها؟....الخ من أسئلة شغلت ذهنها...
حينها بادرت تستفسر من إدارة الميتم، لكنها كانت قد تلقت رسالة من ماغي تتأسف بها على تأخرها وتعتذر منها، لأنها تعرضت لحالة مرضية أجبرتها على الرقود في المشفى. كما أنها في رسالتها ترجتها زيارتها في المشفى...

حينها قدمت هيونا التماسا لإدارة الميتم لزيارة صديقتها ماغي، ونظرا للحالة الإنسانية وصيغة الوفاء المرفقة بالطلب؛ وافقت الإدارة على طلبها وتمت زيارتها برفقة أحدى عاملات الميتم.

حين ألتقت برفيقتها ماغي في المشفى؛ هرعت نحوها، احتضنتها، انجذبتا بعضهما للبعض، فرحت كثيرا ماغي بزيارة هيونا وهديتها، حتى هجست بأن المرض قد خف عن بدنها. في حينها لاحظا والدي ماغي حجم الألفة والمحبة بين الفتاتين، حتى تمنيا في دواخلهما بأن تكون هيونا أختا لماغي. وحين غادرت هيونا المشفى وعدتها بزيارة أخرى خلال الأسابيع القادمة.

وفي أحد الأيام وهي قابعة في سريرها أخبرتها مديرة الميتم بأن عائلة ما تريد تبنيها.. نتيجة ألفتها وصحبتها لعدد من فتيات الميتم؛ كانت قد رفضت الفكرة، لم تتقبها، في الميتم خلقت صداقات مع العديد من الفتيات صرن يشغلن بالها...
لكنَّ المديرة ألحت عليها على قبول الفكرة، أوضحت لها بأن ذلك من مصلحتها، وأن واقع الميتم يختلف كثيرا عن واقع الأسرة، فالميتم لكثرة أعداد نزلائه ومشاكله الإدارية ومشاكل النزلاء لا يجعل الاهتمام يكون خاصا، فالمسؤول يراعي عشرات الفتيان والفتيات، لذا يكون الاهتمام بالجماعة لا يساوي الاتمام بالفرد. بينما العائلة التي تتبناك ستكرس اهتمامها عليك، ذلك ما سيغير من قدرك وشأنك مستقبلا نحو الأفضل حين تكبرين..
كما أن المديرة طلبت منها مقابلة العائلة التي تود تبنيها، قبل أن تحسم قرارها الأخير بالرفض، لربما تجد سعادة معها.
وافقت هيونا على مقترح المديرة، حينها ذهبت معها إلى المكتب لمقابلة العائلة، كانت تهجس بالحيرة.. وما أن فتح باب

المكتب حتى أصابتها الدهشة والرعشة والمفاجأة!!.... حيث وجدت العائلة التي تود تبنيها هي عائلة صديقتها ماغي توماس... لذا تهلل وجهها فرحا وسرورا، أسرعت بخطاها نحوهما، أرتمت بذاتها في أحضانهما، شعرت بحنين الوالدين، وبالشوق لصديقتها ماغي...

حيث كانت تجمع العائلتين صحبة قديمة، وحين وجدت عائلة ماغي وجود هيونا إلى جانب ماغي سيساعدها على الشفاء العاجل، وستكون أختا ورفيقة لأبنتهما، إلى جانب رد جزء من الوفاء لوالدي هيونا، لذا قررا تبنيها نزولا لرغبة أبنتهما ماغي التي اقترحت على والديها الفكرة.....

كانت عائلة ماغي غنية، مكتفية ذاتيا، لا ينقصها سوى سعادة أبنتهما ماغي، وهذه السعادة لا تكتمل إلا بوجود هيونا إلى جانب ماغي، مما دعاها إلى وضب أمورها في خدمة الطفلتين على اكمل وجه.

بعد أن شفيت ماغي من مرضها، جدولت العائلة حياتها في برنامج أسبوعي، يضفي ألفة وسعادة على واقعهم، بحيث في نهاية كل أسبوع تهم برحلة ترفيهية لأحدى الأماكن المخصصة، وقد توزعت رحلاتهم على مدن الألعاب الترفيهية والمكتبات العامة والمتاحف وصيد السمك في البحيرة القريبة من القرية...الخ.

كانت هيونا قد استأنست كثيرا بانضمامها لعائلة صديقتها، حتى أنها شعرت بأن مربيها عوضاها حنان والديها، أنسياها مصابها...

باندماجها التام في خط العائلة؛ شعرت بذوبان الفوارق بينها وبين ماغي، حتى أنها صارت تنادي مربيتها بصيغة ماما، ذلك ما أسعد والدة ماغي كثيرا، عرفانا بحسن تربيتها.

ذات يوم تذكرت هيونا الميتم وتذكرت زميلاتها فيه، فبان على وجهها وشاح الحزن، وحين لاحظت مربيتها ذلك الأسى طاغ عليها؛ سألتها عن سبب إكتابها؟ فقالت لها:...

- لا شيء يزعجني، أنما تذكرت زميلاتي في الميتم، شعرت بالحنين إليهم... ترى يا ماما؛ هل ممكن ترافقيني في زيارتهم؟

حينها وجدت مربيتها بأن هيونا فتاة طيبة وعاطفية جدا، ويجب مداراة مشاعرها، لذا احتضنتها وطبطبت على كتفها، ثم قالت لها:...

- أبشري يا حبيبتي، سنأخذ بأيدينا بعض الهدايا لكل بنات الميتم، وسترافقك في الزيارة أختك ماغي.

تهلل وجه هيونا فرحا، ثم قبلت والدتها من يدها شاكرة استجابتها.

خلال زيارتهم الميتم عرفت زميلاتها على والديها الجدد وأختها ماغي، كما وزعت عليهم برفقة ماغي قطع من الملابس الجديدة ونماذج من الألعاب والحلوى، ذلك ما ترك انطباعا طيبا بين بنات الميتم وإدارة الميتم على حسن سلوك هيونا.

خلال عودتهم من الميتم بعد أن عرَّفت والديها على نزلاء الميتم، سألت والدها توماس بلطف:...

- يا أبي هل لدينا أمكانية مادية تمكننا من خدمة هؤلاء المساكين القابعين في الميتم؟
- ماذا تقصدين يا أبنتي؟
- أقصد بأن زملائي في الميتم لا يأخذون كفايتهم من التعليم، أنا وماغي نذهب كل يوم للمدرسة، فيما هؤلاء المساكين لا يحظون بهذه الفرصة، فتعاليمهم في الميتم مقتصرة على أمور بسيطة. أنا افكر تحويل دار والديَّ المهجور إلى مدرسة يتعلم بها نزلاء الميتم.

هل ممكن تحقق لي هذا المشروع وتكمل جميلك؟ أنه سيدر علينا عطف ومحبة الناس، وسيصيبنا دعاء السنتهم الصادقة، سيحمينا الله من الشرور والحسد، فأنا لا أنسى كيف أصاب الشر والديَّ.

أخذها بحضنه وقبلها من رأسها قائلا لها:....

- نعم يا صغيرتي سأحقق ذلك لك....

يوما بعد يوم ازداد إعجابا بذكائها وطيبتها.

- صحيح ما تقول؟؟؟؟؟
- نعم، نحن عائلة غنية، وهذه المسألة سوف لا تكلفنا سوى مستلزمات العمل فقط، طالما تبرعتِ بدار والديك؟ أبشري...

كان والد ماغي رجل حازم جدا، وكريم نفس، جواد، ساع للخير، وعندما سمع باقتراح هيونا فرح كثيرا، قرر دعم المشروع بفتح مدرسة الأيتام على أن يسميها دار هيونا للتعليم....

وبعد افتتاح المدرسة شعر توماس بفخر أنجازه وبمحبة الناس له، مثلما أشارت له هيونا، حينها قال لزوجته وهي ترافقه في جولة قرب الدار:...

- أني سعيد بهذه الفتاة اللماحة الذكية، لقد علمتني درسا في الحياة، لم أكن فيما سبق أدرك أثره.
- ماذا تقصد؟ وماذا تعلمت؟
- تعلمت منها الإباءة والوفاء والإيثار، كما تعلمت بأن السعادة يجب أن لا ننتظرها تحل بيننا، بل يجب علينا السعي خلفها، أن نخلقها، نصنعها بأيدينا، فالسعادة ليست بكثرة المال؛ أنما بطرق توضيبه وصرفه في مجالات تخدم المجتمع، المال هو عامل مساعد للوصول إلى سعادة دائمة..

حينها نظر إلى هيونا نظرة لطف وعطف وأعجاب، ترك في نفسها بصمة ثقة تعتز بها، مثلما تركت بذاته ذات البصمة من يوم دخولها محيط العائلة.

هكذا أضحى شاكرا لها عمق تفكيرها وإنسانيتها رغم حداثتها سنها، رغم عمق مأساتها؛ إلا أنها تمكنت من إزاحة العقد والفجوات من حياتها، تمكنت من رسم البسمة والسعادة في وجه ماغي والعائلة وزميلاتها في الميتم.

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنود النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- نقط الحروف
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- صور مضيئة

سباق مجلة البيات

كانت أميرة قد شكت لصديقتها أميمة من شبح الوحدة الكابت على قلبها، فأشارت إليها أميمة بمرافقتها لبيت الداده، لتغيير من روتين حياتها، ولتستمتع بصداقات جديدة مع النساء، ولسماع قصص شجية .حقيقية وخيالية وما يطرح في بيت الداده من أخبار البلد

سرها اقتراح أميمة، فاستأذنت زوجها الذي لا يرفض لها طلبا إلا ما ندر. وفي أحد أيام الخميس رافقت أميمة لدار الشيخة، استأنست كثيرا .في مشاركتها تلك الجلسات، بعد أن تحررت من قيد الوحدة المقيتة

لأول مرة لمست حرينها وعرفت ما يدور حولها، بانت قريبة جدا من المجتمع، ففي كل مجتمع يوجد الصالح والطالح، فلا مانع من التعرف .على أشكال البشر ليكون لديها حزين من المعرفة

تعرفت وصاحبت الكثير منهن، تقربت من بعض ونفرت من أخريات. كانت لأميمة الدور الأكبر في نزع وشاح الخجل من على وجه أميرة، تمكنت من ترويضها في بودقة المجتمع الجديد، سرها سماع القصص وانتبهت لقصص بعض النساء التعيسات اللاتي يفضفضن بمشاكلهن مع الازواج، ممن لا يجدنّ في أزواجهنّ ما يسعدهنّ، فشكرت الله على نعمة .الألفة بينها وبين زوجها، وعلى الرقي الذي يتميز به عن سائر الرجال